الدين القيم

الإسلام.. هو الدين القيم

الإسلام هو الدين القيم حقاً. دين الإنسانية، الدين الملائم للفطرة، الموافق للعقل المطابق للواقع، المساير لسنن الكون ونظام الحياة. الدين الحنيف الذي فلسف الإنسانية فلسفة كاملة شاملة، فلسفة حقيقية واقعية تنطبق على الإنسان جسماً وروحاً ظاهرً وباطناً انطباقاً تاماً لا زيادة فيه ولا نقص كثوب مفصّل على الإنسان تفصيلاً محكماً، فلا هو بالقصير الضيق، ولا هو بالواسع الفضفاض. لا يرفع الإنسان فوق طوره، ولا يهبط به دون مستواه.

دين وثيق العرَى، ثابت الأركان، واضح المعالم، بيّن الحدود، لا إشكال فيه ولا غموض، ولا تعمية ولا إلغاز، دخل على الإنسان من باب نفسه، واحتج عليه بشواهد عقله وحسّه.. وقاده إلى تعاليمه بزمام طبعه، لا بتأثير ولا بتغرير، ولا بقوة ولا بطش.

دين قيم يقبله الأصفياء الأزكياء، بشهادة قلوبهم ونور بصائرهم لأنهم يجدونه ترجمة عما في صدورهم، وتفصيلاً لما في ضمائرهم [أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ[1]] ويتنبه إليه الغافلون متى رجعوا إلى عقولهم واحتكموا إلى الدليل والبرهان، ولا ينكره بعد البيان والتعريف إلا من سفه نفسه، وأهدر عقله [وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ[2]]. أي الخارجون عن الفطرة المنسلخون عن الآدمية، المجردون عن

---

[1] سورة المجادلة الآية ٢٢

[2] سورة البقرة الآية ٩٩

العقول التي تفقه وتدرك.

ما خلا الإنسان إلى نفسه، ورجع إلى عقله، وفكر في الإسلام تفكيراً سليماً إلا ازداد إيماناً بصحته واقتناعاً بفائدته، ولا امتحنه بالعمل والتطبيق إلا بهرة كماله وجماله، واتفاقه مع الواقع، عكس المذاهب والنحل الأخرى، فما يمتحنها الإنسان بالعقل أو بالعمل والتطبيق إلا ويرى فيها الخلل والإضطراب، والتناقض ومجافاة الواقع: واقع الإنسان، وواقع الحياة الخارجية.

الإسلام هو الشريعة البيضاء، والمحجة الغرَّاء، والطريقة الراشدة، والصراط المستقيم. نوَّه الله تعالى بذكره في كتبه السابقة [وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ[1]] وبشر الأنبياء بنيّه قبل ظهوره صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، [الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ[2]]، [وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ[3]].

لولا ما غلب على بعض العقول من التعصب المذموم، والتقليد الأعمى لما أرادت به بديلاً ولا اختارت غيره ديناً.. حتى قال بعض أحبار اليهود وكان من أذكيائهم في مناظرة جرت بينه وبين أحد العلماء، وقد عطف على يهودي إلى جنبه: نحن قد جرى نشأتنا على اليهودية، وتالله ما أدرى كيف الخلاص من أمر هذا العربي. يعني النبي ﷺ.

الإسلام جاء بمعجزتين عظيمتين: ليس لهما مثيل فيما عرفت الدنيا من المعجزات: القرآن الكريم الذي أعجز البلغاء، ولم يستطع أحد منهم من وقت

---

[1] سورة الشعراء الآية: ١٩٦

[2] سورة الأعراف الآية: ١٥٧

[3] سورة الصف الآية: ٦

نزوله إلى يومنا هذا أن يأتي بما يحاكيه أو يدانيه. والشريعة الواضحة الجامعة المتضمنة من مصالح العباد ودرء المفاسد عنهم ما يعجز عنه الحكماء والعلماء، حتى قال بعض أهل الإنصاف من غير المسلمين، عندما وقف على محاسنها: لو كنت متديّناً بدين من الأديان لما اخترت إلا شريعة الإسلام.

وقال بعض المستشرقين منهم: إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها إذ أنه مع أمّيَّته استطاع قبل بضعة عشر قرناً أن يأتي بتشريع سنكون نحن– الأوربيين– أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة..

وفي هذا أقول من قصيدة "همزية".

يا أمـــة المختـــار أحيـــوا شـــرعه ... نجـــدوا حيـــاة العـــز في إحيائـــه

خَلُّـوا الحيـاة علـى أسـاس نظامـه ... لا تقتـــدوا بالغـــرب في آرائـــه

فهـو الـذي جعـل السـعادة للـورى ... حَصـــناً ولاذ بهـــم إلى أفيائـــه

الخـــير يُنشَـــر ظلّـــه في ظلـــه ... والأمـــن يبقـــى ســـائداً ببقائـــه

لـو حـاول الـدهر النمـاس وسـيلة ... ودعـا لهـا مـن شـاء مـن حصـفائه

وأراد أن يهـــدى الحيـــاة لميتـــه ... ويعيـد بعـث الـروح في أعضـائه

لم يلـــف قـــانوناً كشـــرع مُحَمَّد ... –كـلا– ولا عـدلاً كعـدل قضـائه

وحـي مـن الـرحمن كيـف ينالـه ... عقـل، وتـذكر حكمـة بإزائـه

لا تنهـل الألبـاب مثـل سُـلافه ... راحـاً ولا ترضـى بغـير صـفائه

مـا فيـه مـن حِكـم وفـيض معـارف ... بحـر، عقـول الخلـق بعـض دلائـه

الإسلام هو النعمة الكبرى والسعادة العظمى والسبب الذي مدَّه الله عز وجل إلينا لنتصل بحضرته ونصل إلى جنته، ونعيش في أمن وسلام.

أخرج الطبراني في الكبير عن أبي شريح رضي الله تعالى عنه قال: "خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. قالوا: بلى. قال: إن هذا القرآن طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً".

والله تعالى يقول: [قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ[1]].

وروي عن الإمام علي رضي الله تعالى عنه في التنويه بشأن الإسلام أنه قال في خطبة له: "لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل.. إن المؤمن من يعرف إيمانه في عمله، وإن الكافر من يعرف كفره بإنكاره.. أيها الناس دينكم دينكم، فإن السيئة فيه خير من الحسنة في غيره، إن السيئة قد تغفر، وإن الحسنة في غيره لا تقبل.."

وأخرج البخاري في صحيحه "أن بعض أحبار اليهود قال لسيدنا عمر بن الخطاب آية في كتابكم لو أن علينا معشر اليهود نزلت لأتخذنا ذلك اليوم عيداً.

قال عمر: أي آية؟. قال: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً[2]". قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان

---

[1] سورة المائدة الآيتان ١٥ و ١٦.

[2] سورة المائدة الآية: ٣

الذي نزلت فيه على النبي ﷺ. وهو بعرفة يوم جمعة".– يعني وتعظيمنا لكل من يوم الجمعة، ويوم عرفة معروف فإذا اجتمعنا زاد التعظيم، فقد اتخذنا ذلك اليوم عيداً وعظمنا مكانه.

الإسلام هو أكمل الشرائع الإلهية، وأفضلها قال الله تعالى [وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ[1]].– يعني القرآن الكريم فهو أحسن الكتب السماوية التي أنزلها الله تعالى.. جمع ما تفرق فيها من المحاسن والفضائل. كما أن نبينا ﷺ أفضل الأنبياء، لأنه جمع ما تفرَّق فيهم من الأخلاق الكريمة والأحوال الشريفة، وكما أن هذه الأمة المحمّدية خير الأمم لقوله تعالى: [كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ[2]]. وقوله عز وجل: [وكذلك جعلنا كم أمة وسطاً[3]] أي خياراً عدولاً لكمال فطرتهم، وقوة استعدادهم.

لا نقول هذا كله بمجرد الدعوى، ولكن بالأدلة القاطعة، والبراهين الواضحة.. وإليكم البيان:

شريعة جامعة

كان العالم الإنساني والأمة العربية على الخصوص قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم في غاية من الانحطاط الخلقي، والانحلال الاجتماعي والفساد المتغلغل في العقائد والأعمال.. كانوا يعبدون الأحجار والأشجار، ويعكفون على أصنام لهم، لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، وكانوا يسرقون وينهبون ويسفكون الدماء، ويقتلون أبناءهم خشية الفقر وبناتهم مخافة العار، وكانوا يأكلون ويشربون الخبائث من الميتة والدم ولحم الخنزير. وكان الظلم والاضطهاد

---

[1] سورة الزمر الأية: ٥٥

[2] سورة آل عمران الآية: ١١٠

[3] سورة البقرة الآية: ١٤٣

من الأقوياء للضعفاء قد بلغ مبلغه.. وكان أهل الكتاب قد انحرفوا عن سبيله وبدلوا من أحكامه، وكفروا بالله تعالى واختلقوا كذباً صاغوه بألسنتهم، وخلطوا بالحق الذي أنزله الله تعالى باطلاً لا يرضاه الله تعالى ولا يقبله العقل [وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ. اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ[1]]. [وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ[2]].

لذلك اقتضت حكمة الله تعالى البالغة ورحمته السابغة أن يبعث فيهم سيدنا ومولانا مُحَمَّداً ﷺ؛ ليصلح ما فسد من عقائدهم، ويقوم ما أعوج من أخلاقهم وأعمالهم، ويهديهم إلى الصراط المستقيم فيما يتعلق بأمر المعاش والمعاد..

فجاء صلوات الله وسلامه عليه بشريعة جامعة مستقلة بنفسها مستغنية عن غيرها من الكتب والقوانين: دينية كانت أو مدنيّة، لأنها تتضمن:

١. إثبات الصانع جل وعلا، وإثبات توحيده وصفاته الذاتية من العلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام.. ونفي النقائص عنه– عز وجل– وبيان كثير من شئونه في خلقه: ككونه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.. وأنه يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات.. وأنه لا يعذب الخلق على فعل شيء وترك شيءإلا بعد إقامة الحجة عليهم. وأنه كتب

---

[1] سورة التوبة الآيتان: ٣٠ و ٣١

[2] سورة آل عمران الآية: ٧٨

على نفسه الرحمة وأن رحمته سبقت غضبه.. وأنه يذكر من ذكره.. وأنه لا يحب الفساد، ولا يرضى لعباده الكفر.. وأنه يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.. وأن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.. وأنه تعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين.. وأنه يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن يحب.. وأنه لا يكلف نفساً إلا وسعها.. وأن من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها.. إلى غير ذلك مما لا تستقل العقول بإدراكه.

٢. بيان العبادات التي يرضاها الله تعالى؛ وتقرّب العباد إليه زُلفى وبيان كيفيّتها، وأوقاتها وشروطها وآدابها، إذ لا مجال للعقل في ذلك.

والله تعالى لا يتقرب إليه بمناسبات العقول، وإنما يتقرب إليه بما شرعه وأوحى به إلى رسله عليهم الصلاة والسلام..

وفي الصحيح. "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدّ" – أي مردود– وقال ابن أبي زيد في الرسالة: "ولا يكمل قول الإيمان إلا بالعمل، ولا قول ولا عمل إلا بالنية. ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة".

٣. بيان المحرمات التي كلفنا الله تعالى بتركها والكف عنها وهي ثلاثة أقسام: قسم لإحياء النفوس وحفظ الأبدان: كالقتل، وأكل الخبائث من الميتة ولحم الخنزير، وشرب الخمور.. وقسم لائتلاف الناس وإصلاح ذات بينهم: كالغصب والظلم والسرقة.. وقسم لحفظ الأنساب وتعظيم المحارم: كالنهي عن الزنا، ونكاح ذوات الأرحام..

٤. إرشادنا إلى ما هو الحسن المحمود من الأحوال والأخلاق: كستر العورة عن الغير، وعدم اختلاط الجنسين، والنهي عن تبرج النساء وإبداء زينتهنَّ لغير

المحارم، وكالغيرة والمروءة وإكرام الضيف، ومساعدة المحتاج.. فإن ذلك وإن كانت الفطرة تشعر بحسنه وتدعو إليه لكن الشرع يزيده تأكيداً وحُسناً.

٥. إرشادنا إلى قواعد العدل وأسباب الأمن، ونظام المعاملات الدنيوية: كالبيع، والشراء، والإجارة، والشركة، والشهادة والقضاء، وأحكام النكاح، والطلاق والوصية، والميراث.. وغير ذلك مما فيه إقامة مصالح الدنيا وحفظ كيان المجتمع وانتظام أمر المعاش.. فإن العقول لا يمكنها الاهتداء إلى ذلك والاستقلال بمعرفته على الوجه المطلوب. كما أنها لا تجد في السياسات العقلية والقوانين الوضعية ما تجده في الأحكام الشرعية، والقوانين الإلهية من بواعث الرغبة والرهبة التي تحملها على الإستقامة في السر والعلانية.

٦. الإعلام باليوم الآخر، وما فيه من ثواب المطيعين وعقاب العاصين.

٧. إرشادنا إلى الكنوز الإلهية وخزائنه– عز وجل– في السموات والأرض، وكيفية فتحها والإستفادة منها. كإخباره– ﷺ– بأن صدقة السر تطفئ غضب الرب.. وأن صنائع المعروف تقي مصارع السُّوء.. وأن الدعاء في أعقاب الصلوات وفي جوف الليل مستجاب.. وأن الثلث الأخير من الليل ميقات لنزول الرحمات الإلهية والنفحات الربانية.

حتى عبر عنه في الحديث الشريف بقوله "ينزل ربنا إلى سماالدنيا. إذا بقي الثلث من الليل" والله تعالى يستحيل عليه النزول والانتقال والحركة. وإنما هذا نزول فيض ورحمة في ذلك الوقت.

ومن ذلك وضع صيغ الدعوات التي تكون سبباً في جلب المنافع الدنيوية والأخروية ودفع المضار كذلك.. ومن هذا القبيل جعل الصلوات الخمس في أوقاتها المعلومة: الصبح عند طلوع الفجر، والظهر بعد الزوال.. إلخ.. ومن

ذلك الإستخارة التي كان يعلمها رسول الله ﷺ لأصحابه كما يعلمهم السورة من القرآن.

الدين الحنيف

الإسلام دخل على الإنسان من كل باب، وجذبه إلى تعاليمه بكل وسيلة مقنعة: فتارة يذكر له ما يترتب على الإيمان والعمل بهذا الدين الحنيف من العز والشرف [لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[1]].

وتارة يرشدهم إلى ما فيه من الفوائد والثمرات. [وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ[2]].. [وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا[3]].

وورد في أحاديث كثيرة "أن من وصل رحمه بُسط له في عمره وبُورك له في رزقه". وقال ﷺ حاكياً عن الملائكة الذين ضربوا له المثل: إن مثله كمثل رجل بني داراً وجعل فيها مأدبة، وبعث داعياً. فمن أجاب الداعي دخل الدار– الجنة– وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة". وقال ﷺ "إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل أتى قوماً فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء. فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا فانطلقوا على عملهم فنجوا، وكذبته طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش فأهلكهم".

---

[1] سورة الأنبياء: الآية ١٠.

[2] سورة الأعراف: الآية ٩٦.

[3] سورة النور: الآية ٥٥.

وقال عز وجل: [وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ[1]] فبين أن القصاص شرع لحفظ حياة النفوس.. وقال تعالى: [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ]. [وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا[2]] إلى غير ذلك.. وتارة يبين له أن هذا الدين هو شرع المصطفين لأخيار وسنن السابقين من أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام، وهذا من بواعث قبوله والرغبة فيه قال تعالى: [يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ[3]] وقال تعالى: [مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ[4]] وقال تعالى: [شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ[5]].

فما جاء الإسلام، ولا نزل القرآن إلا مصدقاً لما بين يديه من كتب الله تعالى ومهيمناً عليها. يقرر ما قررته من الحق سواء تعلّق بحقوق الله تعالى، كاعتقاد توحيده تعالى عبادة واستعانة، وتنزيهه عما لا يليق بجنابه من الولد والوالد، وتحريم الإلحاد في أسمائه، والتهجم على غيبه، وبيان أنه قَّدر الحوادث قبل أن يخلقها، وأنه ينزل الكتاب على من شاء من خلقه، ويصطفى لرسالته من شاء من عباده وأن على العباد أن يعظموه تعظيماً لا يشوبه تفريط، وأن يسلموا وجوههم وقلوبهم إليه.. إلخ.. أو بمصالح العباد كإباحة النكاح وتحريم السّفاح وإقامة العدل بين الناس، وتحريم المظالم، والضرب على أيدي العابثين، وإقامة الحدود على أهل المعاصي والفجور.

---

[1] سورة البقرة: الآية، ١٧٩

[2] سورة الطلاق: الآيتان ٣ و ٤

[3] سورة النساء: الآية ٢٦

[4] سورة الحج: الآية ٧٨

[5] سورة الشورى: الآية ١٣

والجهاد في سبيل الحق لحفظ الملة والدولة. فهذا وأمثاله ما زاده الإسلام إلا تقريراً وتوكيداً. وكذلك محاسن الأخلاق التي كانت موجودة قبل البعثة: كصلة الرحم، ونصرة المظلوم، ومساعدة الضعيف، والإعانة على نوائب الحق قد أقرها الإسلام وأكدها وتَمَّمَ الناقِص منها كما قال ﷺ "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".

وإنما أبطل الإسلام البدع التي أوحت بها الشياطين وأملتها أهواء المضلين: كعبادة الأصنام، وتشبيه الله تعالى بخلقه، واعتقاد أنه يحل أو يتحد ببعض مخلوقاته.. وأكل الربا، وفرض الإتاوات على الناس ظلماً وعدواناً، والسلب والنهب.. والتشدد والتعمق في العبادات.. كما نسخ بعض الأحكام الفرعية لحكمة اقتضت ذلك، ولمصلحة العباد أنفسهم.

وتارة يذكر الإنسان بحقيقة نفسه ومقدار طاقتها وواقع أمرها وأنها معدن الحكمة والعلم كما سبق في قوله تعالى: [وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى[1]]، وقوله عز وجل: [وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ[2]]، وقوله: [فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا[3]]. وقول النبي ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة".

فالإنسان يقدر على اكتساب المعرفة ويقدر على الإيمان بالغيب متى توفرت له أسباب المعرفة. ووضحت عنده شواهد الإيمان.

وهذا الدين الإسلامي الحنيف الذي دُعِيَ إليه. دين واضح جلي. ينساب إلى النفوس انسياباً، وينساق إليه انسياقاً، لا يحتاج إلى مشقة وعناء.

---

[1] سورة الأعراف: الآية ١٧٢

[2] سورة العنكبوت: الآية ٦١

[3] سورة الروم: الآية ٣٠

ولا يكلف الداعي إليه كبير جهد. وكيف يتكلف الداعي إلى الإسلام جهداً أو يتكبد مشقة؛ وهو إنما يتقاضى من الناس ميثاق فطرتهم؟ [وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ[1]].

فما يجافي الإسلام ولا يخالف عن أمره إلا فاسق غلبت عليه بهيميته، فهو يخالف أحكامه شاهداً على نفسه بالفسق، معترفاً بينه وبين ضميره بالتقصير والتفريط، ولا ينكره ولا يعاديه إلا ناقص العقل أبتر الفهم، مسخوط بين أبناء جنسه، موصوف بالشذوذ عنهم.

قال الإمام الفخر في تفسير سورة "ص" عند قوله تعالى: [قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ]. ما نصه: المفسرون ذكروا فيه وجوهاً، والذي يغلب على الظن أن المراد أن هذا الذي أدعوكم إليه دين ليس يحتاج في معرفة صحته إلى التكلفات الكثيرة، بل هو دين يشهد صريح العقل بصحته: فإني أدعوكم إلى الإقرار بوجود الله تعالى أولاً. ثم أدعوكم ثانياً إلى تنزيهه وتقديسه عن كل مالا يليق به كما قال تعالى: [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ[2]]. ثم أدعوكم ثالثاً إلى الإقرار بكونه موصوفاً بكمال العلم والقدرة والحكمة والرحمة. ثم أدعوكم رابعاً إلى الإقرار بكونه منزهاً عن الشركاء والأنداد. ثم أدعوكم خامساً إلى الامتناع عن عبادة هذه الأوثان التي هي جمادات خسيسة ولا منفعة في عبادتها، ولا مضرة في الأعراض عنها. ثم أدعوكم سادساً إلى تعظيم الأرواح الطاهرة المقدسة، وهم الملائكة والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. ثم أدعوكم سابعاً إلى الإقرار بالبعث والقيامة ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى. ثم أدعوكم ثامناً إلى الإعراض عن الدنيا والإقبال على

---

[1] سورة الحديد الآية ٨

[2] سورة الشورى الآية ١١

الآخرة.. فهذه الأصول الثمانية المعتبرة في دين الله تعالى ودين سيدنا مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم. وبدائه العقول وأوائل الأفكار شاهدة بصحة هذه الأصول الثمانية، فثبت أني لست من المتكلفين في الشريعة التي أدعو الخلق إليها، بل كل عقل سليم وطبع مستقيم فإنه يشهد بصحتها وجلالها وبعدها عن الباطل والفساد. وهو المراد من قوله تعالى: [إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ[1]].

دين الفطرة

الإسلام دين الفطرة: عقائده وأخلاقه محببة للقلوب موافقة للطباع، وفرائضه قليلة جداً سهلة الأداء قال ﷺ: "بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله، وأن مُحَمَّداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا".

شرع الله تعالى فيه كثيراً من الرخص لأهل الأعذار كالتيمم بالصعيد الطاهر عند فقد الماء، أو عدم القدرة على إستعماله. والصلاة في أي موضع طاهر لا في خصوص المساجد– وإن كان أداؤها في المسجد أتم وأفضل– وإباحة الفطر، وقصر الصلاة في السفر بشرطه، والمسح على الخفين بدلاً من غسل الرجلين.. إلى غير ذلك. رفعت فيه أثقال التكاليف الشاقة التي كانت على الأمم السابقة: كتحتم القصاص حتى في الخطأ، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقطع موضع النجاسة من الثوب، والمؤاخذة بالخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه.

وقيل كان لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام وشريعته من الحلال الصرف ضد ما كان لسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام من كل وجه.

---

[1] سورة التكوير: الآية ٢٧

وشريعتنا اعتدل فيها الأمران فسلمت من شدة هذه ولين تلك. واعتدلت في جميع جزئياتها.

دين لا يتحدى الطبيعة البشرية وإنما يعمل على تهذيب غرائزها وتقويمها، لا يأمر الناس بترك الدنيا وإنما يأمرهم بتكييف حياتهم فيها تكييفاً دينياً صالحاً، بأن يريدوا وجه الله تعالى ومصلحة عباده في جميع حركاتهم وسكناتهم. لا يقمع شهوات النفس بالمرة.. وإنما يقمع من الشهوات ما يخرج عن حد الحكمة والعقل، لا يأمر الناس بتغيير طباعهم وجعلها كطباع الملائكة لا تخطر فيها الشهوات ولا تعرض لها وساوس الشياطين.

قال المحاسبي: إن العباد أمروا وندبوا إلى الطاعات.. وأن يتقوا الرياء أن يعتقدوه، ولم يؤمروا أن يتركوا الطاعة من أجل دواعي الرياء. ولو فعل ذلك عبد لأوشك إذا علم الشيطان بذلك منه أن يعترض له عند كل طاعة.

ولم يؤمر الناس أن يخرجوا وساوس إبليس أن تعترض في صدورهم بعد أن جعل الله عز وجل له السلطان لذلك، ولا أن يغيّروا خلقهم وطباعهم حتى تصير لا تنازع إلى شيء من زينة الدنيا رياء ولا غيره، حتى تكون الحمد فيها مكروه والذم فيها محبوب، وإنما أمروا أن يستوى ذلك– يعني حمد الناس وذمهم– في دينونتهم من عقولهم بما استودعها الله عز وجل من العلم، فأما في الخلقة فإن ذلك لم يكلفوه، ولا يقدرون عليه. فإنما أمر العباد بمجاهدة أهوائهم ولم يؤمروا أن لا يكون في النفس غريزة تدعو إلى شهوة، ولا أن يخرجوا وساوس الشيطان أن تعترض في صدورهم بل جُعلت لهم عقول، ومُنَّ عليهم بالمعرفة والعلم قائمين في عقولهم، وابتلوا في غرائزهم، وجعل الشيطان مُسولاً للغرائز بالتذكير لها بما تحب، وأمروا أن يجاهدوا بعقولهم بما استودعهم الله عز وجل من المعرفة والعلم ما هاج من دواعي غرائزهم، ونزع الشيطان وتزيينه للنفس، فليس

على العباد غير ذلك، ولا يقدرون إلا عليه. إلا أن بعضهم في ذلك أقوى من بعض.. فعلى العبد المجاهدة والنهي لنفسه عن هواها، ولم يكلف تغيير طبعه حتى ينقلب كطبع الملائكة عليهم الصلاة والسلام" أ هـ ملخصاً.

وقال العلامة ابن القيم في كتاب "التبيان في أقسام القرآن": لما سلطت على الإنسان الشهوة والغضب أعين بجند من الملائكة وجعل له محل من الحلال ينفذ فيه شهواته، وجعل بإزائه أعداء له ينفذ فيهم غضبه، فما ابتلي بصفة من الصفات إلا وجعل الله تعالى لها مصرفاً ومحلاً ينفذها فيه..

فجعل لقوة الحسد فيه مصرفاً وهو المنافسة في فعل الخير والغبطة عليه والمسابقة إليه.. ولقوة الكبر مصرفاً وهو التكبر على أعداء الله تعالى وإهانتهم وقد قال النبي ﷺ لمن رآه يختال بين الصفين في الحرب: "إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن" وقد أمر الله سبحانه بالغلظة على أعدائه، وجعل لقوة الحرص مصرفاً وهو الحرص على ما ينفع، كما قال النبي ﷺ: "أحرص على ما ينفعك" ولقوة الشهوة مصرفاً وهو التزوج بأربع والتسرّي بما يشاء.. ولقوة حب المال مصرفاً وهو انفاقه في مرضاته تعالى، والتزود منه لمعاده، ومحبة المال على هذا الوجه لا تذم.. ولمحبة الجاه مصرفاً وهو استعماله في تنفيذ أوامر الله تعالى وإقامة دينه، ونصر المظلوم، وإغاثة الملهوف، وإعانة الضعيف، وقمع أعداء الله تعالى، فمحبة الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة، وجعل لقوة اللهو واللعب مصرفاً وهو لهوه مع امرأته وبقوسه وسهمه أو تأديبه فرسَه، وكل ما أعان على الحق.. وجعل لقوة التحيُّل فيه والمكر مصرفاً وهو التحيل على عدوه وعدو الله تعالى بأنواع التحيل حتى يراغمه ويرده خاسئاً، ويستعمل معه من أنواع المكر ما يستعمله عدوه معه. وهكذا جميع القوى التي ركبت في الإنسان جعل الله تعالى لها مصرفاً.. وقد ركبها فيه سبحانه لمصالح اقتضتها حكمته فلا يطلب تعطيلها..

وإنما تصرف في مجاريها من محل إلى محل، ومن موضع إلى موضع.. ومن تأمل هذا الموضع وتفقه فيه علم شدة الحاجة إليه وعظم الانتفاع به". أهـ

فليس المطلوب إذاً قطع الشهوة والغضب من النفس ولا محو آثارهما بالكلية، بل هذا ليس في الإمكان ولا في متناول القدرة الإنسانية، وإنما المطلوب المحتاج إليه وهو أصل فلاح الإنسان وينبوع سعادته أن يكون أمرهما متوسطاً معتدلاً. فلا تزيد الشهوة حتى تصل إلى حد الوقاحة والمجانة ويكون الجشع والحرص والفسق والفجور.. ولا تنقص إلى حد الجمود فيختل الأمر وينقطع شريان الحياة. بل تتوسط حتى تكون القناعة والعفة والجود والمواساة. وكذلك الغضب لا ينبغي أن يزيد فيحمل الإنسان على التهور وأذى الخلق والتعدي عليهم، ولا ينقص حتى يحصل الخوف والجبن، وتذهب الغيرة والحمية فيفسد الدين والدنيا معاً، بل يتوسط حتى يكون الصبر والشجاعة وما إلى ذلك من صفات الشرف والكمال..

وقد ضرب الإمام الفخر في تفسيره للدنيا وما فيها من الشهوات والعوارض الشاغلة عن الحق تعالى، مثلاً بالجو الفاسد الوبئ، الذي يخشى الإنسان أن يفسد مزاجه، ومع ذلك فهو لا يستغنى فيه عن استنشاق الهواء فلا سبيل له حتى يحيا الحياة الطيبة إلا أن يصلح ذلك الهواء الوبئ بالروائح الطيبة والأشياء الزكية والرشِّ بالخل والماورد إلى غير ذلك من المصلحات. فكذلك الدنيا لا يستغنى الإنسان عن أمورها، وهي المعينة للشيطان عليه، القاطعة عن الله تعالى. فطريق الخلاص له، تقصير الأمل والزهد في الدنيا– عدم شغل القلب بها– وتحريف هوى النفس أي إصلاحه بالذكر الطيب والزهد كما يصلح الهواء الفاسد بالروائح الطيبة والأشياء الزكية، فإذا حرف هوى النفس صح مزاج عقله واستقام له أمره، فلا يميل إلا إلى الحق ولا يبقى عليه في

التكليف كلفة ويصير له بالأمور الإلهية– وهي الطاعات– ألفة.. وهنالك يعترف الشيطان بأنه ليس له عليه سلطان..

وتحريف هوى النفس هذا الذي ذكره الفخر عبارة لطيفة ومغزاها كبير؛ فإن النفس لا يمكن في بداية الأمر صرفها عن شهواتها ومألوفاتها، فلابد مبدئياً من موافقتها في بعض أغراضها حتى تسلس وتلين ويستقيم حالها.

قال بعضهم: إن لسان حال النفس يقول لصاحبها: كن معي في بعض أغراضي وإلا صرعتك.. فالعاقل يسلك بها من طرق الحق ووجوه الخير– على ما ذكره ابن القيم في عبارته السابقة– ما يوافق مزاجها ويأتلف مع طبعها، ويتغاضى في البداية عما يكون لها من الحظ والشهوة في ذلك، وذكر الله تعالى هو الذي يحرّف هوى النفوس ويصلح من شأنها، وهو الدواء الناجع، والإكسير الذي يغير الطباع، ولذلك جعله الصوفية أهم أركان الطريق وسموه "منشور الولاية" وقالوا: إن الله تعالى إذا أراد أن يوالي عبده فتح عليه أبواب الذكر.

بهذا جاء الدين الإسلامي الحنيف فنظم حياة الإنسان، وقوَّم غرائزه، وهذبها وما دخلت المشقة على الناس إلا من مجاوزة الحد والجهل بحقيقة المطلوب.

قال ﷺ "بعثت بالملة السمحة الحنيفيَّة البيضاء".

قال العلامة الذهلوي "يريد بالسمحة: ما ليس فيها مشاقّ الطاعات التي ابتدعها الرهبان، بل فيها لكل عذر رخصة، يتأتى العمل بها للقويّ والضعيف، والمكتسب والفارغ.. وبالحنيفية: ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام المتضمنة لإقامة شعائر الله ومحو الشرك وإبطال التحريف، والرسوم الفاسدة؛ وبالبيضاء: التي ظهر أمرها، وصارت وسائلها ومقاصدها واضحة لا يرتاب فيها من تأمل، وكان سليم العقل غير مكابر.

دين اليسر

الإسلام دين اليُسر.. أي طريق معرفته والوقوف على حقائقه سهل ميسّر.. أما بالنسبة لمن عاصر النبي ﷺ فقد أخذه بمشاهدة العيان، وصار عنده أمراً واقعياً محسوساً، حيث شاهد أحوال النبي ﷺ، وسمع أقواله، ورأى معجزاته رأى العين. ومما لا خلاف فيه لصديق ولا لعدوّ أنه ﷺ كان أعقل الناس، وأطيب الناس، وأطهرهم سيرة، وأكرمهم خُلقاً، وأعظمهم صدقاً وأمانة، وكان غاية في قوة الحواس، وصحة البدن، واعتدال المزاج، وقد أخبر أصحابه عن الوحي، وبين لهم أنه أمر حقيقي واقعي، وأنه تارة يتمثل له الملك رجلاً فيكلمه، ويعي ما يقول، وتارة يأتيه كصلصلة الجرس فيفصم عنه وقد وعى ما قال.. وكانوا يشاهدونه ﷺ عند نزول الوحي ويرون آثاره عليه. وقد جاء عنه ﷺ: أن الوحي كان يخالط قلبه. ومعناه: أنه يتصل به، ويصير عنده أمراً ضرورياً محققاً، وفي رواية قال ﷺ: "شقَّ الملكان صدري فما وَلّيا حتى كأني أعاين الأمر معاينة".

ولهذا يقول الغزالي: ولا تظن أن معرفة النبي عليه الصلاة والسلام لأمر الآخرة ولأمور الدين تقليد لجبريل عليه الصلاة والسلام بالسماع منه، كما أن معرفتك تقليد للنبي ﷺ حتى تكون معرفتك مثل معرفته، وإنما يختلف المقلَّد فقط، وهيهات.. فإن التقليد ليس بمعرفة. بلى هو اعتقاد صحيح.. والأنبياء عليهم الصلاة والسلام عارفون. ومعنى معرفتهم: أنه كشف لهم حقيقة الأشياء كما هي فشاهدوها بالبصيرة الباطنة. كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد..

ومتى كان ﷺ من معاينة الأمر ومشاهدة الحقائق بهذه المثابة، وكان من كمال العقل وقوة الحواس والإدراك وطهارة السيرة وصفاء السريرة. وكان أرحم الناس بالناس وأبرّهم بهم وأحرصهم على هدايتهم.

ولا غرض له سوى ذلك. لم يطلب من أحد أجراً، ولا جر لنفسه نفعاً مادياً. بل تحمل أذى الأعداء وجفاء الجهال، وكلف نفسه وأهله من الزهد في الدنيا والتخلي عن شهواتها ما لا يطيقه بشر سواه.. متى كان بهذه المثابة فلا شك أن القلوب تكون مضطرة لتصديقه والإذعان له.. وقد أكثر القرآن الكريم من التذكير بأحوال النبي ﷺ وصفاته العالية ومكانته بين الناس، وثقتهم فيه طوال حياته حيث يقول: [لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ[1]]، ويقول: [أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ. أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ[2]]. ويقول: [وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى[3]] ويقول: [أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى. وَلَقَدْ رَآَهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى[4]].

فكل هذه الأشياء. سيرته ﷺ الطيبة، وأخلاقه الكريمة، ومعجزاته الباهرة وعلى رأسها القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذه الشريعة الواضحة الكفيلة بمصالح العباد، حقائق ثابتة وأمور واقعية لا يمكن إنكارها. وما أحسن صنيع البخاري في صحيحه حيث قدم باب بدء الوحي وجعله فاتحة كتابه، وذكر فيه الأحاديث الواردة في الوحي وهي في غاية الصحة، وتصف الأمر الواقع المحسوس وضمَّ لها حديث هرقل مع أبي سفيان.. وفيه وجوه كثيرة تدل على صحة نبوته ﷺ وتنفي عنه جميع الشبه. ثم أعقبه بباب الإيمان للإشارة إلى أن من كان كذلك فلا محيص من تصديقه والإيمان به.

---

[1] سورة التوبة الآية ١٢٨

[2] سورة المؤمنون الآيات ٦٧- ٧٠

[3] سورة النجم

[4] سورة النجم الآيات: ١، ٢، ١٢، ١٣، ١٤

أي أن الفطرة قاضية بذلك. فالمشاهد له ﷺ يجد الآيات الدالة على صدقه أموراً محسوسة، لا يمكن المكابرة فيها.

وأما بالنسبة لمن تأخر زمانه فإنه وإن فاتته مشافهة النبي صلى الله عليه وسلم ومشاهدة آياته. فليس في الدنيا– كما قال ابن تيمية– علم مطلوب بالأخبار المتواترة إلا والعلم بآيات نبينا ﷺ وشرائع دينه أظهر من ذلك. وما من حال أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والملوك والعلماء والمشايخ المتقدمين وأحواله وأقواله وأفعاله وسيرته إلا والعلم بأحوال سيدنا مُحَمَّد ﷺ أظهر من العلم بذلك وأبين، ونقله أكمل وأتم، وما من علم يعلم بالتواتر مما هو موجود كالعلم بالبلاد البعيدة.

كعلم أهل الشام بالعراق وخراسان والهند والصين والأندلس، وعلم أهل المغرب بالشام والعراق. وأمثال ذلك من علم أهل البلاد بعضهم بحال بعض إلا وعلم الإنسان بحال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وما هم عليه من الدين، وما ينقلونه عن نبيهم ﷺ من آياته وشرائعه أظهر من علمه بذلك كله.

فتواتر أحواله، وسيرته، وشريعته، وكتابه الذي أنزل عليه ﷺ يجعل المتأخر بمنزلة المعاصر له، المشاهد لأحواله ومعجزاته.. يضاف إلى هذا ما تجدد بعد عهده ﷺ من الدلائل والبراهين، الدالة على صدقه وكمال دينه، وكونه مشتملاً على الصواب والصلاح، ومطابقة الحكمة، وموافقة المنفعة في الدنيا والآخرة تحقيقاً لقوله عز وجل: [سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ[1]].

فلم يبق لجاهل عذر، ولا لمرتاب شبهة.

ولذلك يقول الغزالي بعد ما ذكر جملة من معجزاته وأحواله العجيبة:

---

[1] سورة فصلت الآية: ٥٣

"فأعظم بغباوة من ينظر في أحواله. ثم في أقواله. ثم في أفعاله. ثم في أخلاقه ثم في معجزاته. ثم في استمرار شرعه إلى الآن. ثم في انتشاره في أقطار العالم. ثم في إذعان ملوك الأرض له في عصره وبعد عصره مع ضعفه ويتمه. ثم يتمارى بعد ذلك في صدقه. وما أعظم توفيق من آمن به وصدقه واتبعه في كل ما ورد وصدر فنسأل الله تعالى أن يوفقنا للاقتداء به في الأخلاق والأفعال والأحوال والأقوال بمنه وسعة جوده".

وأما يسر هذا الدين من جهة العمل به فسبيل ذلك أن يلاحظ الإنسان أن أمور هذا الدين الإسلامي كلها أمور حقيقية واقعية.. فالبعث حق واقع والجنة حق.. والنار حق.. وثواب الله تعالى على الحسنات.. وعقابه على السيئات حقيقة واقعة،. وكل ما سماه الله تعالى في كتابه أو في سُنة نبيه ﷺ فهو كما سَّماه.. وكل ما أخبر به فإنه محقق الوقوع.. وعند ذلك يجعل الإنسان لقاء الله تعالى ومصيره إلى الآخرة أمراً حاضراً في قلبه مقرراً في نفسه، وفي هذه الحالة يشعر بأن العبادات قد صارت أموراً طبيعية، ولوازم ضرورية.. كضرورة الأكل والشرب وغيرهما من لوازم البشرية في هذه الحياة الدنيا.

فالبلية كل البلية في الغفلة عن الله تعالى وتعطل القلب عن ذكر الآخرة وانحصار الهم في الدنيا وشهواتها.

والخلاصة أن الله تعالى قد يسَّر الوصول إلى معرفة هذا الدين وتحصيل اليقين بصحته وصوابه وكثرة منافعه، بما جبل عليه نبيه ﷺ من التحلي بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، والتخلي عن جميع النقائص والعيوب، وبما أظهره في عالم الحس على يديه ﷺ من خوارق العادات، وأنواع الكرامات، وبما أودعه في قلوب الخلق من التعلق بأحواله ونقل كل ما ينسب إليه من قول وفعل منذ وجوده ﷺ حتى الآن. حتى بقيت شريعته ومعجزاته وكتابه المنزل عليه محفوظة

متواترة تواتراً لم يسبق له مثيل، ولا عرف له نظير في هذه الحياة الدنيا. فما يتفكر الإنسان في هذا الأمر أدنى تفكر ولا يلتفت إليه أقل التفات إلا باشر اليقينُ بصحةِ هذا الدين وكماله قلبه وامتزج بدمه ولحمه، ومتى وصل اليقين إلى هذا الحد قهر النفوس وسخر الجوارح، وتيسر العمل بأحكام الدين، والقيام بأوامره ونواهيه ولو كانت صعبة.. فكيف وهي خفيفة خالية عن المشقة والحرج.

دين الإنسانية

الإسلام دين الإنسانية– أي الدين الذي كمَّل الإنسان وزاده بسطة في العلم وقوة على العمل.. وبيان ذلك:

١. أن العقول وإن كانت كاملة مبصرة فليست العلوم عندها على مرتبة واحدة. بل بعضها تكون حاضرة بالفعل وهي العلوم الضرورية وبعضها يحتاج إلى نظر واستدلال.

وها هنا تلعب الهواجس النفسية والخواطر الشيطانية فتعوق الفكر عن النهوض فيحتاج الإنسان إلى الإرشاد والتنبيه.. وإنما تنبِّهه الكلمات الحكيمة والتوجيهات الصادقة حتى يصير العقل مبصراً بالفعل وتتفتح له أبواب المعارف والعلوم.. وأعظم الحكمة كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ فهو الذي يقرر الدلائل وينقحها ويكشف مواضع الشبه ويبطلها؛ فتكون منزلته من عين العقل منزلة نور الشمس من العين الظاهرة فيتم الأبصار، ولهذا سمي القرآن والسُّنة النبوية نوراً. كما يسمى ضياء الشمس نوراً.

٢. أنه زاد الإنسان طريقاً من طرق العلم وهو طريق الوحي المعصوم عن الخطأ والوهم، فغاية ما يظفر به الماديون المدركات الحسية وبعض العلوم العقلية الخاصة بشئون الدنيا.. أما المسلم المصدِّق بالوحي– وهو حقيقة واقعة– فإنه

يستفيد منه علوماً شتى: كالعلم بالملائكة عليهم الصلاة والسلام، وسائر الموجودات الغيبية.. والعلم بشئون الله تعالى في خلقه– وقد ذكرنا طرفاً من ذلك فيما سبق.

قال النيسابوي: (نزول القرآن الكريم نعمة على النبي ﷺ ونعمة علينا.. أما أنه نعمة عليه ﷺ فلأنه أطلع بواسطته على أسرار التوحيد.. ونعوت الجلال والإكرام.. وأحوال الملائكة عليهم الصلاة والسلام، وسائر النفوس القدسية.. وعلى كيفية القضاء والقدر وتعلُّق أحوال العالم السفلي بالعالم العلوي، والشهادة بالغيب، وارتباط أحدهما بالآخر.

وأما أنه نعمة علينا فلأنا نستفيد منه أيضاً مثل ذلك، ونعرف منه الأحكام الشرعية المفضية إلى إصلاح المعاش والمعاد..)

٣. الإنسان وإن كان له إرادة وقوة عملية إلا أن هذه الإرادة كثيراً ما يعرض لها الكسل والتواني ويعتريها الملل والفتور.. فإذا أوردت عليه الترغيبات والترهيبات من جهة الشارع.. وتبيَّن له خصائص البرِّ ومنافعه، ومضار الإثم ومفاسده تقوى إرادته ويتجدد نشاطه ويعرف قيمة نفسه.

وما اختص به من القدرة على كبح جماح شهوته ومخالفة هواه..

وتأمل.. مثل قوله ﷺ: "ليس الشديد بالصُّرعة وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب". وقوله عليه الصلاة والسلام: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، إحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز".. إلخ.. تأمل هذا وأمثاله وتفكر في هذا الأسلوب النبوي القوي تشعر بما فيه من الإلهاب والتهييج وبعث النفوس على الجد والعمل.

وقد فطن إلى هذا المعنى بعض الأوربيين حيث قال: كان مُحَمَّد (صلى الله

عليه وسلم) واقفاً على أسرار بلاغة لغته. وبهذه اللغة كان يخطب مُحَمَّد (صلى الله عليه وسلم) قومه، فكان يعطي حكمه جميع صنوف التأثير السحري، ويعطي تعاليمه الروعة التي تناسبها، ويعطي الأمثال المتداولة بين أهل زمانه مسحة من الجمال، جعلتها ذات قيمة غير قيمتها الأولى.

وقال بعضهم: امتاز مُحَمَّد (ﷺ) بوضوح كلامه، ويسر دينه، وأنه أتم من الأعمال ما يدهش الألباب، فلم يشهد التاريخ مصلحاً، أيقظ القلوب، وأحيا الأخلاق، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير، كما فعل مُحَمَّد (ﷺ)..

منبع السعادة

ومما يدل على أن الإسلام هو دين الحق الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، وشرعه لمصالحهم، وجعله موافقاً لفطرتهم، محققاً لسعادتهم:

١. ما ينشأ من استعمال عباداته، والمحافظة على سننه ورواتبه وأذكاره من خمود الأمراض الباطنية، من كبر. وحسد. وعجب. ورياء.. إلخ

٢. ما يكرم الله تعالى العاملين به، المتمسكين بأوامره ونواهيه من أنواع الكرامات الحسية والمعنوية، وما يلقيه عز وجل في قلوب الخلق من محبتهم وتعظيمهم، وما يكسوهم به سبحانه من الهيبة، والوقار، وما يجعله في قلوبهم من الهداية والنور.

٣. ما يجدونه في قلوبهم من اللذة والبهجة والأنس والصفاء. وكلما أخلص العبد لله تعالى زاده عز وجل نوراً في قلبه، وصفاء في عقله، وقوة في بدنه، وبركة في أهله وماله.

قال بعض العارفين: مساكين أهل الدنيا! خرجوا من الدنيا ولم يذوقوا نعيمها.! فقيل له كيف ذلك.؟ فقال: حلاوة الطاعة، ولذة العبادة.

وقال بعضهم: أهل الليل في ليلهم، ألذ من أهل اللهو في لهوهم.

وقال آخر: لو لم يكن للعاملين بهذا الدين عوض على أعمالهم إلا ما يجدونه من لذة العبادة وحلاوة المناجاة لكفاهم ذلك.

وعلى العكس من ذلك ما يحصل من البلاء والمرض والذل والضيق وتشتت الفكر لمن خالف أحكامه، ونبذ أوامره ونواهيه.

وهذا نظير الإنسان يأكل طعاماً يلائمه.. أو ينزل منزلاً طيب الهواء والماء، فيصح جسمه، ويقوي بدنه، ويبتهج ويسر.

وعلى العكس من ذلك إذا أكل طعاماً رديئاً، أو نزل منزلاً وبيئاً فإنه تضمحل صحته، ويسقم صحته، ويسقم جسمه، وينحرف مزاجه.

فالتعاليم الإسلامية.. والشريعة المحمدية في العمل بها الصحة والعافية جسماً وروحاً، والعز والشرف دنيا وأخرى؛ لكونها ملائمة للفطرة... موافقة للطبيعة.

وقد كثر في القرآن والسنة التنبيه على ذلك كقوله تعالى: [اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا[1]] [مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً(٢)]، [وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا[3]].

وفي الحديث: "من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل

---

[1] سورة نوح الآيات ١٠ – ١٢

[2] سورة النحل الآية: ٩٧

[3] سورة الجن الآيتان: ١٦، ١٧

ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب".

وقال تعالى: [وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا[1]].

وهذه أمور مجربة، وحقائق ثابتة بالحس والمشاهدة والعيان، وهي سنة الله تعالى في خلقه التي لا تجد لها تبديلا ولا تحويلا.

قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: من أدرك علم الكتاب نصاً واستنباطاً ووفقه الله تعالى للقول والعمل به فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الريب، ونورت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة.

وقال ابن السماك: من أعرض عن الله تعالى بكليته أعرض الله عنه جملة، ومن أقبل على الله تعالى بكليته أقبل الله برحمته إليه، وأقبل بجميع وجوه الخلق إليه، ومن كان مرة ومرة فالله يرحمه وقتاً ما.. قال معروف الكرخي: كنت ماراً بالكوفة، فوقفت على ابن السماك وهو يعظ الناس ويقول ذلك في خلال كلامه فوقع كلامه، في قلبي، فأقبلت على الله تعالى، وتركت جميع ما كنت عليه إلا خدمة مولاي علي بن موسى الرضا، وذكرت هذا الكلام لمولاي.

فقال: يكفيك بهذا موعظة إن اتعظت.

وفي شرح الإحياء للعلامة الزبيدي: التقى الإمام أحمد بن حنبل وأحمد بن أبي الحوري رضي الله تعالى عنهما بمكة، فقال أحمد بن حنبل حدثنا بحكاية سمعتها من أستاذك أبي سليمان الداراني فقال: يا أحمد قل سبحان الله بلا عجب، فقال ابن حنبل: سبحان الله وطولها بلا عجب فقال: ابن أبي الحواري

---

[1] سورة الإسراء الآية ١٦

سمعت أبا سليمان يقول: إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت، وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علماً فقام أحمد ابن حنبل ثلاث مرات وجلس ثلاثاً وقال ما سمعت في الإسلام حكاية أعجب من هذه إليّ. ثم قال: حدثني يزيد ابن هارون عن حميد الطويل عن أنس يرفعه: "من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم" ثم قال لإبن أبي الحواري صدقت يا أحمد وصدق شيخك. قال أبو نعيم ذكر أحمد هذا الحديث عن بعض التابعين عن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام فظن بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ. قال الزبيدي ومن شواهده ما أخرجه أبو نعيم بسنده عن الحسين بن علي عن أبيه رضي الله تعالى عنهما رفعه "من زهد في الدنيا علمه الله بلا تعلم، وهداه بلا هداية، وجعله بصيراً وكشف عنه العمى"..

ومصداق هذا قول الله عز وجل: [وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا[١]]، وقوله عز وجل: [وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ[٢]].

وقال ابن القيم في كتابه "شفاء العليل": "وهل قامت مصالح الوجود إلا بالأمر والنهي، وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام، وإنزال الكتب.. ولولا ذلك لكان الناس بمنزلة البهائم يتهارجون في الطرقات، ويتسافدون تسافد الحيوانات، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، ولا يمتنعون من قبيح، ولا يهتدون إلى صواب، وأنت ترى الأمكنة والأزمنة التي خفيت فيها آثار النبوة.. كيف حال أهلها. وما دخل عليهم من الجهل والظلم والكفر بالخالق!. والشرك

---

[١] سورة النساء الآيات: ٦٦– ٦٨

[٢] سورة العنكبوت الآية: ٦٩

بالمخلوق! واستحسان القبائح، وفساد العقائد والأعمال!. فإن الشرائع بتنزيل الحكيم العليم أنزلها وشرعها الذي يعلم ما في ضمنها من مصالح العباد في المعاش والمعاد، وأسباب سعادتهم الدنيوية والأخروية، فجعلها– سبحانة– غذاءً ودواءً وشفاءً وعصمة وحصناً وثلجاً وجنة ووقاية.. وكانت بالقياس إلى مصالح الأبدان بمنزلة حكيم عالم ركب للناس أمراً يصلح لكل مرض ولكل ألم وجعله مع ذلك غذاء للأصحّاء.. من يتغذى به من الأصحاء غذاه، ومن تداوى به من المرضى شفاه.. وشرائع الرب تعالى فوق ذلك وأجل منه، وإنما هو تمثيل وتقريب، فلا أحسن من أمره ونهيه، وتحليله وتحريمه.. أمره قوت وغذاء وشفاء، ونهيه حمية وصيانة..

فلم يأمر عباده بما أمرهم به حاجة منه إليهم ولا عبثاً. بل رحمة وإحساناً ومصلحة، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً منه عليهم، بل حماية وصيانة عما يؤذيهم ويعود عليهم بالضرر إن تناولوه.. فكيف يتوهم من له مسكة من عقل خلوها من الحكم والغايات المحمودة المطلوبة لأجلها.

ولهذا استدل كثير من العقلاء على النبوة بنفس الشريعة، واستغنوا بها عن طلب المعجزة، وهذا من أحسن الاستدلال. فإن دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام من أكبر شواهد صدقهم.. وكل من له خبرة بنوع من العلوم إذا رأى حاذقاً قد صنف فيه كتاباً جليلاً، عرف أنه من أهل ذلك بنظره في كتابه.. وهكذا كل من له عقل وفطرة سليمة، وخبرة بأقوال الرسل ودعوتهم إذا نظر في هذه الشريعة– المحمدية– قطع قطعاً نظير القطع بالمحسوسات أن الذي جاء بهذه الشريعة– صلوات الله وسلامه عليه– رسول صادق، وأن الذي شرعها أحكم الحاكمين.. ولقد شهد لها عقلاء الفلاسفة بالكمال والتمام، وأنه لم يطرق العالم ناموس أكمل ولا أحكم منها.."

فعقائد الإسلام وعباداته، وأحكام معاملاته.. هي التي تجلب الرحمة وتورث العز، والنصر، والخير، والبركة في الدارين.. ولهذا سماه الله تعالى حياة وروحاً حيث يقول: [أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا[1]]، ويقول جلّ شأنه: [وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا[2]]. لأن فيه حياة القلوب والأبدان، وصلاح الباطن والظاهر وإستقامة أمر الدنيا والآخرة.. وشبهه النبي ﷺ أنه قال: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي جئت به".

أخبر ﷺ أن أنصباء الناس من العلم والدين مختلفة متفاوتة: فمنهم من يسيغه ويفهمه فيعمل به ويعلمه لغيره وهو كالأرض الطيبة النقية التي تشرب الماء فتنتفع في نفسها، وتنبت العشب والزرع فتنفع غيرها. ومنهم من ينفق زمانه في حفظه وتعليمه لكنه لا يعمل بنوافله ولا يتذوق طعمه وحلاوته فهو كالأرض الجدباء التي لا تشرب ماءً ولا تنبت زرعاً، وإنما تمسك الماء فينتفع به الناس. ومنهم الجافي المتكبر الذي لم يدخل في الدين ولم يقبل هداه أصلاً، فهو كالأرض الصماء الملساء التي يمر عليها الماء مرًّا، فلا تشرب فتنتفع. ولا تمسك الماء فينتفع به الغير..

وهذه القسمة ضرورية لاختلاف عقول الناس وطبائعهم، وتفاوت استعداداتهم

---

[1] سورة الأنعام الآية ١٢٢

[2] سورة الشورى الآية ٥٢

على ما اقتضته الحكمة الإلهية، وسبق به تقدير العزيز العليم.

طهارة القلوب والأبدان

تأمل دعوة الإسلام هل تجد فيها إلا تطهير القلوب من شوائب الشرك جلية وخفيه، وتزيينها بمعرفة الله تعالى ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه في الدنيا والآخرة.. وهذا ما يحققه مقام الإيمان.. الذي فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره).. ثم تشريف الجوارح والأبدان بطاعة الله تعالى من طهارة، وصلاة، وصيام، وحج. وهذا مقام الإسلام، وهو أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت الحرام إن استطعت إلى ذلك سبيلاً.. ثم تنوير السرائر بمراقبة الله تعالى واستحضار عظمته وهيبته وجلال ربوبيته. وهو مقام الإحسان. الذي فسره رسول الله ﷺ بقوله: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"..

ثم تحقيق العدالة العامة بين الناس وإصلاح الاجتماع بصفة عامة بأن يعاون الناس بعضهم بعضاً، ويتم بينهم التآلف والتآزر، وتمهد لهم سبل أرزاقهم، وتهيأ لهم مرافقهم العامة..

ومن العجيب المدهش أن الله تعالى أراد أن يكون هذا الدين بهذه المثابة ديناً يسراً جامعاً لمصالح الدنيا والآخرة وافياً بحظ الجسم والروح.. فأخرجه النبي ﷺ إلى الوجود على هذا الوصف وطبقه تطبيقاً عملياً على مراد الله تعالى ومحبته، حتى شهد له عز وجل بذلك حيث يقول: [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا[1]]. وقد نزلت هذه الآية في

---

[1] سورة المائدة الآية: ٣

حجة الوداع.. وعاش بعدها ﷺ زمناً يسيراً، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى..

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: "مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها، وترك فيها موضع لبنة، فصار يقال ما أحسنها لو تمت.. فأنا اللبنة التي تم بها الأنبياء".

أمنية أهل العقل

تأمل رعاك الله تعالى وأكرمك.. إن الله تعالى قد شرع هذا الدين ووضعه أمام العقول.. عقول الفلاسفة، وعقول الحكماء، وعقول علماء الاجتماع، وعقول الاقتصاديين، وعقول السياسيين.. وسائر طوائف البشر الممتازين، وفيهم الخصم العنيد، وفيهم المستطلع المتشوف للوقوف على أغوار الأمور.. فما أستطاع أحد من هؤلاء جميعاً أن يطعن على الإسلام طعناً مقبولاً، أو يأتي بما ينقض قاعدة من قواعده وأصلاً من أصوله، وقد تحدَّاهم أكثر من مرة.. وكان المعاصرون لرسول الله ﷺ أهل جدل وخصام.. وفي كثير منهم حسد عليه وامتعاض منه.. ثم من بعد عهد النبوة إلى الآن قد مضت قرون كثيرة.. فهل استطاع الملمون بالفلسفة والمتخصصون في الحكمة أن يزعموا أنَّ هذا الدين في أصل من أصوله أو فرع من فروعه المتفق عليها بين الآئمة ناقض عقلاً أو نافر طبعاً.؟.. كلا..

هل يستطيع ذو عقل أن يدعي القدرة على الإتيان بما يحاكي تعاليم الإسلام أو يداينها..؟ .. كلا..

وما أحسن قول العلاء بن الحضرمي رضي الله تعالى عنه للمنذر بن ساوي أمير البحرين، عندما أرسله النبي ﷺ له، حيث قال: "يا منذر إنك عظيم العقل في الدنيا فلا تصغرنَّ عن الآخرة.. إن هذه المجوسية شردين، ليس فيها تكرُّم

العرب، ولا علم أهل الكتاب.. ينكحون ما يستحيا من نكاحه، ويأكلون ما يتنزه عن أكله، ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة.. ولست بعديم عقل ولا رأي، فأنظر: هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا أن لا تصدقه؟!.. ولمن لا يخون أن لا تأتمنه؟!..

ولمن لا يخلف أن لا تثق به؟!.. هذا هو النبي الأميَّ الذي والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول: ليت ما أمر به ينهى عنه، أو ليت ما نهى عنه يأمر به.. أو ليته زاد في عفوه أو نقص من عقابه.. إذ كل ذلك على أمنية أهل العقل، وفكر أهل النظر".

دين الكمال والجمال

الإسلام دين الكمال والجمال.. عقائده وعباداته، وأخلاقه، وأحكام معاملاته كلها في غاية الكمال والإتقان.. وكلها متساندة مترابطة، يتصل بعضها ببعض، ويشد بعضها بعضاً.

الإسلام لا يرضى بالقشور، ولا يعوّل على ظواهر الأمور.

قال تعالى: [لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ[1]]. وقال ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى"، وقال عليه الصلاة والسلام: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم".

الإسلام لا يرضى بأنصاف الأشياء.. ولا بأشباح الأعمال دون أرواحها.. لا يرضى أن يعيش الرجل نصف إنسان.. ونصف الإنسان هو الذي يقصر نظره على الدنيا، وينسى الآخرة وحياتها.. وهو الذي يهتم بمطالب الجسد التي

---

[1] سورة الحج الآية: ٣٧

يشاركه فيها الحيوانات، وينسى مطالب الروح التي تلحقه بأفق الملائكة المقربين..، ولا يرضى بنصف الإيمان.. ونصف الإيمان هو الذي لا يثمر الأحوال السنية والأخلاق الكريمة.. فلا يكون معه إخلاص ولا توكل، ولا زهد ولا رضا ولا سكينه، ولا خوف من الله تعالى، ولا رجاء في رحمته وثوابه، ولا حلم ولا بر، ولا كرم، ولا مروءة، ولا أمانة، ولا عهد ولا وفاء..

قال ﷺ "لا إيمان لمن لا أمانة له.. ولا دين لمن لا عهد له"، وقال عليه الصلاة والسلام "من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له" "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه".. "من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فلا يؤذ جاره".

وروي عنه ﷺ أنه قال: "إن مثل الإيمان كمثل شجرة ثابتة.. الإيمانُ– يعني هنا خصوص التوحيد– عروقها.. والصلاة أصلها.. والزكاة فروعها.. والصيام أغصانها.. والتأذي في الله نباتها– أي نموها–.. وحسن الخلق ورقها.. والكف عن محارم الله ثمرها..

وقال بعض العارفين: "صدق الإيمان التعظيم لله.. وثمرته الحياء من الله" وقال بعضهم: "التوحيد– يعني اعتقاد أن الله موجود بذاته واحد في ملكه– موجب يوجب الإيمان، فمن لا إيمان له لا توحيد له، والإيمان موجب يوجب الشريعة، فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له، والشريعة موجب يوجب الأدب، فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له..".

فلسفة الإنسانية

الإسلام فلسفة الإنسانية.. أي أنه شرح وتفصيل لما يشعر به الإنسان في نفسه، ويحس بلزومه وضرورته كل عاقل..

لأن الإنسان منألِّه متدين بفطرته.. يشعر بأنه مستند في وجوده إلى غيره، ومقهور بقوة تسيطر عليه.. يريد أن لا ينام، ولا يجوع، ولا يمرض، ولا يموت.. فينام، ويجوع، ويمرض، ويموت.

ويريد أن لا ينسى شيئاً فينساه، ويريد أن ينسى حادثة مفجعة فلا ينساها..

وربما يعزم على شيء فينقض عزمه بلا اختيار منه.. وهذه هي العبودية الموجودة في كل إنسان.. وهي من أعظم دلائل الربوبية.

ولذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ "العبودية جوهرة" لأنها طريق معرفة الله تعالى، ومصدر البحث عنه، والتفكير في الوسائل الموصلة إليه.

والإنسان كذلك مدني بطبعه.. لا يستغني عن سياسة يقوم بها حياته.. وينظم بها روابطه مع غيره.

فإذا كان الإسلام عبارة عن الدعوة إلى الإيمان بهذا الصانع الحكيم، والخلاق العظيم جل وعلا.. الذي يشعر به كل ضمير، وتحس بسلطانه كل نفس.. وعبارة عن بيان صفاته عز وجل.. وأسمائه وكيفيه العبادات التي يقبلها ويرضاها.. وعبارة عن القانون الذي يحتاج الناس إليه في تنظيم حياتهم، وطرق معاملاتهم بعض مع بعض.. كان– والحالة هذه– هو الفلسفة الحقيقية للإنسان ومواهبه وغرائزه.

فلم يأت الإسلام بشيء غريب، بعيد عن العقول والأذهان [أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ

صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ[1]].

[قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[2]].

فالإسلام لم يناقض فطرتنا.. بل فصل مجملها وشرح غامضها، ومهد لها سبل الإصلاح والتهذيب. كل ما أمر به من التوحيد والعدل والأمانة والصدق والعفة والكرم والعز وبرّ الوالدين وصلة الأقارب ومواساة المحتاجين والشرف والشجاعة والمروءة.. أمور تستحسنها العقول السليمة وتقبلها الطباع المستقيمة. وكل ما نهى عنه من الشرك والظلم والغدر والخيانة والكذب وقتل النفس والجبن والبخل.. أمور تستقبحها العقول وتنفر منها الطباع.

جعل لنا أعياداً ومواسم نظهر فيها الفرح والسرور..

لم ينه الناس عن تجارة ولا زراعة ولا صناعة.. ولا عن عادة جروا عليها في حياتهم إلا إذا كانت قبيحة مستهجنة.. عقائده وقوانينه كلها لازمة للإنسان.. وفيها راحة العقل والقلب والبدن وصلاح المعاش والمعاد..

---

[1] سورة يونس الآية: ٢

[2] سورة الأنعام الآيات: ١٥١– ١٥٣

فلو لم يكن هذا الدين مفروضاً علينا لاحتجنا له.. وما أمكننا الإستغناء عنه.. ومهما فكرنا في نظام غيره فلن تجد أحسن منه نظاماً، ولا أرسي منه قواعد؛ ولا أكثر منه فوائد وثمرات..

الإسلام فلسف الإنسانية لأنه استوعب الكلام على النفوس الإنسانية وأحوالها وآفاتها.. وفيه مراعاة طبع الإنسان.. وبيان ما جبل عليه وهو أنه لا يطلب إلا لرجاء ورغبة، ولا يهرب إلا عن خوف ورهبة.. ولذلك رغبة الله تعالى بالجنة وثوابها.. وخوفه بالنار وعذابها..

وفيه أن الإنسان قادر على الإيمان بالغيب متى وضح الشاهد وقام الدليل. ويمكن أن يرجو ويخاف مما ليس معايناً ولا مرئياً..

وهو فلسفة الإنسانية لأن فيه وجه الحيلة على النفس وكيفية صرفها عن شهواتها.. وفيه بيان كيف يقتبس الإنسان العلم وكيف يتعظ.

وهو فلسفة الإنسانية لأنه ينظم علاقة الإنسان بربه، وعلاقته مع أبناء جنسه. وسائر الموجودات الماثلة حوله. وقد وضع كل شيء في نصابه، وقدره بميزاته الذي لا يخسر ولا يطغى.

شرائع الإسلام على مرتبتين

الإسلام هو الدين القيم.. وذلك لأنه راعى أحوال العباد في القوة والضعف، واختلاف طبائعهم واستعداداتهم ووظائفهم في الحياة، فجاءت شرائعه من عبادات.. وأخلاق.. وأحوال على **مرتبتين**:

– مرتبة جواز.. لا يصح تجاوزها والنزول عنها بحال لأنها في متناول الكل وتحت قدرة الجميع، ولأنها هي المفضية إلى جملة المقصود، وليس تحتها شيء يعتبر.

– ومرتبة كمال.. يتنافس فيها المتنافسون، ويتسابق إليها المتسابقون، وهي المفضية إلى المقصود على الوجه الأكمل.. وهي في نفسها درجات تتفاوت: بعضها أعلى من بعض.. وهذا منتهى الحكمة والرحمة.

إذ لا سبيل إلى أن يكلف الجميع بإقامة الآداب والكمالات ومراعاة الفضل في كل شيء.. لأنه بمنزلة التكليف بالمحال في حق الضعفاء، والمشتغلين بالمكاسب.. ولا سبيل إلى أن يكتفي بالأدنى، ويهمل الأعلى وهو مشرب السابقين، وحظ الأقوياء..

وقد كان رسول الله ﷺ يراعي أحوال الناس، ويعطي كلا ما يناسبه. جاءه مرة أعرابي فقال: "يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة ويبعدني عن النار.. فقال ﷺ: تعبد الله ولاتشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان.. فقال: فهل عليّ غيرها؟! قال: لا.. إلا أن تطوَّع.. فقال: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص.. فلما ولّى.. قال صلى الله عليه وسلم: من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا.!" والحديث في البخاري بألفاظ مختلفة.

فأنظر كيف دلَّ رسول الله ﷺ هذا الأعرابي على مجرد الفرائض وهي مرتبة الجواز. ولم يأمره بصلاة الضحى ولا بقيام الليل، ولا بغير ذلك من النوافل والرغائب. مع أنه لم يكتف من عبدالله بن عمر رضي الله عنهما بمثل ذلك. بل حثه على قيام الليل بقوله: إن عبدالله رجل صالح لو كان يقوم الليل.. ومن ثمَّ لم يترك ابن عمر بعد ذلك قيام الليل حتى مات.

وما ذاك إلا أنه ﷺ أنس في ابن عمر قوة في الحال، وفراغاً من الشواغل لم يأنسهما في الأعرابي..!!

هذا هو التفاوت في العبادات.. وأما بالنسبة للأخلاق فقد قال الله تعالى: [وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ[1]].. وهذه الآية الكريمة فيها المرتبتان: مرتبة الجواز، وهي جزاء سيئة سيئة مثلها..، ومرتبة الكمال وهي العفو والإصلاح.. وهي التي كان رسول الله ﷺ متصفاً بها بل كان في أعلى درجاتها، وأقصى غاياتها.

وفي أسباب النزول أن مسطح بن أثاثة، لما خاض في شأن عائشة الصديقية رضي الله تعالى عنها مع من خاضوا في قصة "الإفك" شق ذلك على أبي بكر ﷺ وعز عليه أن يتكلم في ابنته أم المؤمنين، وزوجة سيد المرسلين وهو قريبه، وكان ينفق عليه من ماله.. فأقسم أن لا يجرى عليه شيئاً من النفقة بعد اليوم مجازاة له ببعض ما يستحق.. ولكن هذه المرتبة وهي مرتبة الجواز وإن صلحت لغير أبي بكر.. فإنها لا تصلح لمقام هذا الصديق الأكبر. صاحب المختار ﷺ، ورفيقه في الغار، الذي لا ينبغي له إلا أن يكون على قدم صاحبه صلوات الله وسلامه عليه، ومن الأخذ بالكمال، وهو إيثار العفو والصفح عن المسيء مهما يكن جرمه..

لذلك عاتبه الله بقوله: [وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا[2]].

وأما بالنسبة للأحوال والمقامات فمما يدل على تفاوتها قوله صلى الله عليه وسلم في تفسير الإحسان: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"..

فقد جمعت هذه العبارة الشريفة مقامي المشاهدة.. والمراقبة، والأولى أن

---

[1] سورة الشورى الآية: ٤٠

[2] سورة النور الآية: ٢٢

تعبد الله كأنك تراه وهي أتم وأكمل.. والثانية أن تعبده مستحضراً أنه يراك، وهي أدنى من الأولى إلا أنها في حيز الكمال ونظير هذا ما روي أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنهما يقول: "إذا استطعت أن تعامل الله تعالى بالرضا فأرض.. وإلا فعليك بالصبر".. فمعاملة الله تعالى بالرضا– وهو ابتهاج القلب وسروره بما يجريه عز وجل على عبده ويقسمه له، حلواً كان أو مراً– هي مرتبة الكمال. فمن استطاعها فليتحقق بها وإلا فدونه مرتبة الجواز وهي مقام الصبر، الذي هو عبارة عن ترك الاعتراض على المقادير وإن أحس بالبلاء وكره ذلك بطبعه.

ومن تتبع النصوص وجد من هذا شيئاً كثيراً.. كقوله ﷺ: "بني الإسلام على خمس" مع قوله مرة أخرى: "الإيمان بضع وستون شعبة" فالخمس وهي شهادة أن لا إله إلا الله، وأن مُحَمَّداً رسول الله، والصلاة والصيام، والزكاة، والحج هي الفرائض اللازمة لكل أحد.. والشعب الأخرى منها نوافل ورغائب.. ومنها فرائض تجب على بعض الناس دون بعض، على حسب وظائفهم في الحياة.

وندب رسول الله ﷺ الناس مرة إلى الصدقة. فجاء عمر ﷺ بشطر ماله، وأبو بكر ﷺ بماله كله، فأقرهما على فعلهما.

وطلب منه بعض أصحابه مرة أن يخرج عن جميع ما له فلم يقره على ذلك.

الدين الرسمي

الإسلام هو الدين الرسمي للعالم كله.. منذ بعث الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى أن تقوم الساعة، لا يسمع به أحد إلا لزمته دعوته، وتوجهت إليه أحكامه وتكاليفه.. بل لو بعث آدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود وعيسى

وغيرهم من رسل الله تعالى عليهم الصلاة والسلام، وكانوا أحياء الآن لما دعوا إلى الله تعالى إلا بهذا الدين، ولا جاهدوا إلا في سبيل نشره، وإشاعة أمره.

وكانوا في مقدمة أنصار نبينا ﷺ وأعوانه. كما قال ﷺ: "لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي" وذلك لأنه ﷺ هو الذي أكمل الله تعالى به الدين، وشيد قواعد اليقين، (فلم يبق– كما قال الشيخ ابن تيمية– معروف تعرف العقول أنه معروف إلا أمر به.. ولا منكر تعرف العقول أنه منكر إلا نهي عنه. لم يأمر بشيء فقيل ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقيل ليته لم ينه عنه.. وأحل الطيبات لم يحرم شيئاً منها.. كما حرم في شرع غيره، وحرم الخبائث لم يحل منها شيئاً كما استحله غيره– يعني استحله برأيه لا بتشريع من الله– وجمع محاسن ما عليه الأمم: فلا يذكر في التوراة والإنجيل والزبور أمر من الخبر عن الله وعن الملائكة، وعن اليوم الآخر إلا وقد جاء به على أكمل وجه، وأخبر بأشياء ليست في هذه الكتب.. فليس في تلك الكتب إيجاب العدل، وقضاء بفصل، وندب إلى الفضائل، وترغيب في الحسنات إلا قد جاء بما هو أحسن منه.. وإذا نظر اللبيب في العبادات التي شرعها وعبادات غيره من الأمم ظهر فضلها ورجاحتها.. وكذلك في الحدود والأحكام، وسائر الشرائع.. وأمته أكمل الأمم في كل فضيلة، فإن قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر فضل علمهم، وإن قيس دينهم وعباداتهم وطاعاتهم لله بغيرهم ظهر أنهم أدين من غيرهم، وإذا قيس شجاعتهم وجهادهم في سبيل الله وصبرهم على المكاره في ذات الله ظهر أنهم أعظم جهاداً وأشجع قلوباً، وإذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة أنفسهم بغيرهم تبين أنهم أسخى وأكرم من غيرهم..

وهذه الفضائل به– ﷺ– نالوها ومنه تعلموها.. وهو الذي أمرهم بها.. لم يكونوا قبله متبعين لكتاب، جاء هو بتكميله، كما جاء المسيح بتكميل شريعة

التوراة.. فكانت فضائل أتباع المسيح– عليه الصلاه و السلام– وعلومهم بعضها عن التوراة، وبعضها من الزبور وبعضها من النبوات، وبعضها من المسيح وبعضها ممن بعده كالحواريين، ومن بعد الحواريين.. وقد استعانوا بكلام الفلاسفة وغيرهم حتى أدخلوا في دين المسيح أموراً ليست منه.

وأما أمة مُحَمَّد ﷺ فلم يكونوا قبله يقرأون كتاباً. بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداود– عليهم الصلاة والسلام– والتوراة والإنجيل والزبور إلا من جهته، فهو الذي أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويقروا بجميع الكتب المنزلة من عند الله.. ونهاهم أن يفرّقوا بين أحد من الرسل).

وفي كتابنا "أساس السعادة" ما نصه: من تأمل في نصوص الشريعة الإسلامية الغراء وجد أنها مبنية على العدل والرفق ومراعاة المصالح والحقوق.. ومنع التعدي وصيانة الآداب، وتأسيس النظام في كل شيء.

كما قال تعالى في كتابه العزيز: [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[1]].

فهي شريعة عادلة حكيمة خالية من العسر والحرج، بعيدة عن التفريط والإفراط في كل شيء، تحض على طلب الآخرة، ولكنها لا تحرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق وتعظّم حق الله تعالى وتجعله هو الأولى بالأداء ولكنها لا تهمل حقوق المخلوقين.

يدلك على هذا قوله تعالى: [وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ

---

[1] سورة النحل الآية: ٩٠

اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ[1]]. وقوله عزّ وجل: [قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ[2]].

وفي صحيح البخاري عن أنس ﷺ قال: "جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ. فلما أخبروا كأنهم تقالّوها– عدوها قليلة– فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ! قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. فقال أحدهم: أما أنا.. فإني أصلي الليل أبداً. وقال آخر: .. أنا أصوم الدهر ولا أفطر.. وقال آخر: .. أنا اعتزل النساء فلا أتزوج.. فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا.. أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء.. فمن رغب عن سنتي فليس مني".

بين رسول الله ﷺ بهذا الحديث الشريف أن خشية الله تعالى وتقواه.. لا تدعوان إلى التبتل بمواصلة الصيام والقيام والإعراض عن الدنيا بالكلية.. بل من كمال الخشية والتقوى أن يرفق المؤمن بنفسه، ويعطي كل ذي حق حقه.

ومثله ما أخرجه البخاري أيضاً عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: "بينما النبي ﷺ يخطب.. إذ هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا أبوا إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم.. فقال النبي ﷺ: "مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه".

فأنظر كيف لم يقره ﷺ على القيام وعدم الكلام وترك الإستظلال.. وإنما أمره فقط بإتمام الصيام، لعلمه أن الصوم لا يشق عليه، ولكون الصوم عبادة مشروعة.

---

[1] سورة القصص الآية: ٧٧

[2] سورة الأعراف الآية: ٣٢

وفي البخاري أيضاً "أن النبي ﷺ.. آخى بين سلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهما فزار سلمان أبا الدرداء.. فرأى أم الدرداء– زوجة أبي الدرداء– متبذِّلة فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا.. فجاء أبو الدرداء.. فصنع له طعاماً. فقال: كل. قال: إني صائم.. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل فأكل. فلما كان الليل.. ذهب أبو الدرداء يقوم فقال: نم.. فنام.. ثم ذهب يقول فقال: نم.. فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصلَّيا.. فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً.. فأعط كل ذي حق حقه.. فأتى النبي ﷺ، فذكر له ذلك. فقال النبي ﷺ: صدق سلمان".

فصوب عليه الصلاة والسلام رأي سلمان وهو الأخذ بالرفق، ومراعاة حقوق الغير.

ومن هذا يعلم أن الشريعة الإسلامية شريعة سمحة كلها نظام، وعدل، ورفق، وإحسان، وللأخلاق والآداب فيها مكانة عليا؛ حتى قال رسول الله ﷺ: "إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله"– أخرجه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها.. وقال عليه الصلاة والسلام: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم"– رواه الترمذي. وقال: حسن صحيح.. لم يقل صلوات الله وسلامه عليه أكمل المؤمنين إيماناً أكثرهم صياماً وقياماً، ولا أطولهم عكوفاً في المساجد.. بل قال أحسنهم خلقاً..!.. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: تقوى الله وحسن الخلق.. وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال: الفم والفرج.." أخرجه الترمذي أيضاً وصححه.. والحكمة في تخصيص الفم، والفرج أنهما أعظم الأعضاء شراً وأكثرها أذية للغير.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: "الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله.. وأدناها إماطة الأذى عن الطريق.. والحياء شعبة من الإيمان". فأنظر كيف حكم النبي ﷺ بأن للإيمان شعباً كثيرة متنوعة.. وجعل الحياء- وهو خلق يبعث على ترك التقصير في حق ذي الحق- من الإيمان.. وهذا يؤيد ما قلناه من أن الشريعة الإسلامية كلها خلق وأدب.. وكلها مبنية على الحكمة والعدل ومراعاة المصالح والحقوق.. وتأسيس النظام في كل شيء.

ولقد اعتنى العلماء وخصوصاً المحدثين منهم ببيان شعب الإيمان وآدابه المشار إليها في الحديث المتقدم حتى ألف بعضهم- كالإمام البيهقي- في ذلك كتاباً خاصاً سماه "شعب الإيمان" ومما عدوه من هذه الشعب- وهو أهمها وأقدسها- شكر الله تعالى بأداء فرائضه والجهاد في سبيله والإخلاص له في جميع الأعمال.. ومنها أداء الأمانة وحفظ السر وصلة الرحم وبر الوالدين ونصرة المظلوم وإغاثة اللهفان، والتعاون على البر والتقوى والاتحاد وقضاء حوائج الناس والإصلاح بينهم؛ والصدق والعدل والحياء، والشجاعة والكرم والوفاء بالعهد. وإنجاز الوعد.. وإكرام الضيف، وحسن الجوار، والحلم والصبر، والعفو، والعفة والقناعة، والتواضع، وصيانة اللسان عن الكذب والغيبة والنميمة والألفاظ الفاحشة البذيئة، والتخلي عن الكبر والعجب والحسد.. ومنها ترك جميع الفواحش والمنكرات كالسرقة والغصب والتعدي والظلم والخيانة والمكر والخداع وقتل النفس ولعب الميسر وقطع الطريق وأكل الربا وأكل مال اليتيم، وقبول الرشوة وشهادة الزور، ومعاندة الحق، ومحبة الظلمة والفاسقين والغش في البيع والشراء، واحتقار الفقير والاشتغال بعيوب الخلق وتتبع عوراتهم، وإقرار المنكر والرضا بالفجور؛ والسكوت عن الباطل والخروج

عن الجماعة؛ وترك الطاعة لولاة الأمور. وغير ذلك مما يتوقف عليه صلاح العالم وسعادة الأفراد والجماعات.

أضف إلى ذلك.. ما وضعته الشريعة الإسلامية من قواعد النظام في المعاملات نحو البيع والشراء والإجارة، والشركة، والقرض، والرهن؛ والوقف؛ والوصية، والميراث؛ والصلح.. وما مهدته من القضاء وكيفية الشهادات، وإثبات الجنايات وتحديد أنواعها.. والقصاص الواجب فيها..

وما قررته من الحدود.. للزنا، وشرب الخمر، وقطع الطريق، وما رسمته من ضروب الجهاد وكيفية المعاملة مع الأسرى والمحاربين وسائر المخالفين في الدين.

ثم ما وضعته من نظام الأسرة، ومعاشرة الأزواج، وتربية الأولاد وما ينبغي أن يلاحظه المؤمن من الأدب في أكله وشربه، ونومه، وجلوسه، وحديثه،. وبالجملة كل ما يعمله في نهاره وليله، لمعاشه أو لمعاده، مما لا يمكن للقوانين الوضعية والسياسات العقلية أن تفي به.. أو تأتّى عليه..

[وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ[1]]. والحمدلله رب العالمين.

دينكم.. أيها المسلمون

هذا هو الدين الذي ارتضاه الله عز وجل لعباده، وأذن لهم أن يعاملوه بمقتضاه، وأن يعبدوه على منهاجه.

فما بقي لأحد اختيار لعبادة، أو معاملة دنيوية غير ما قرره.

قال الشاذلي ﷺ: كل مختارات الشرع ومرتباته هي مختار الله تعالى، ليس لك فيه شيء.. فأسمع وأطع.

---

[1] سورة الأعراف الآية ٤٣

والله تعالى يقول: [فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[1]].. [فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا[2]].

وما بقي لشريعة من الشرائع المتقدمة حكم في هذه الحياة الدنيا إلا ما قررته هذه الشريعة المحمدية.. هذا حكم الله تعالى.. وهذا قضاؤه وأمره..

فالطرق كلها مسدودة إلا على من اتبع الإسلام واقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم.. فلا ثواب ولا خير، ولا فتح ولا قبول، ولا وصول إلى الله تعالى ومحبته بعد أن بعث الله تعالى مُحَمَّداً ﷺ بشريعته الخاتمة لجميع الشرائع، المتضمنة لكل ما فيها من المحاسن والمزايا إلا لمن عمل بهذه الشريعة والتزمها ودان بها.. وإذا مشي العبد على صراطها كان الحق تعالى ناصره ومعينه، ومؤيداً له وراضياً عنه.

قال رسول الله ﷺ في وصيته لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: "يا غلام احفظ الله يحفظك.. احفظ الله تجده تجاهك"، وفي رواية أمامك، أي بالمعونة والنصر والحفظ والتأييد؛ وهو كقوله تعالى: [إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ[3]]. أي إن تمسكتم بما جاء به مُحَمَّد ﷺ من العقائد والأخلاق والأحكام نصركم الله تعالى، وأعزكم حساً ومعنى دنيا وأخرى.

فيا أيها المسلمون دينكم.. دينكم.. اتبعوه.. وحافظوا على تعاليمه وهو دين مبحوث، ومجهز تجهيزاً كاملاً.. قد بينه رسول الله ﷺ غاية البيان، حتى تركنا على المحجة البيضا، ليلها كنهارها، لا يضل فيها سالك، ولا يزيغ عنها إلا هالك..

---

[1] سورة النور الآية ٦٣

[2] سورة النساء الآية ٦٥

[3] سورة مُحَمَّد عليه الصلاة والسلام. الآية ٧

ولخص العلماء– أكرمهم الله تعالى وشكر مساعيهم– علماء الدين الربانيون، وآئمة الحق العارفون.. لخصوا المطلوب في العقائد والأعمال والأخلاق أحسن تلخيص.. فكفوا الناس المؤونة، وأغنوهم عن كثرة البحث والجدال..

خلاصة العقائد الإسلامية

وهذه خلاصة وافية لما ذكروه من العقائد والأصول التي لا يسع المكلف جهلها..

فأول ذلك أن يعتقد المكلف اعتقاداً جازماً، خالياً من الظنون والشبهات أن له ولهذا العالم بأسره علويه وسفليه إلهاً واحداً أوجده، من العدم.. لا إله غيره، ولا زوجة له، ولا ولد، ولا والد.. ولا شبيه ولا نظير.. لا علة لوجوده حتى يكون له أول.. ولا يلحقه الفناء حتى يكون له آخر.. ليس بجوهر فيحتاج لمكان، ولا بعرض يقوم بغيره، ولا بجسم فتكون له جهة من الجهات.. [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[1]]– قال بعض المحققين: التوحيد إثبات ذات غير مشبهة للذوات ولا معطلة عن الصفات– لا يبلغ حقيقته الواصفون.. ولا يدرك كنهه المتفكَّرون [وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ[2]].. الحي القيوم.. العالم الخبير.. المريد.. المدبر.. القدير.. السميع البصير.. المتكلم.. ذو العرش المجيد.. أحاط بكل شيء علماً.. خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد.. لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.. له الأسماء الحسنى.. والصفات العليا.

كلم موسى عليه الصلاة والسلام، وكلم نبينا ﷺ في ليلة المعراج بكلامه

---

[1] سورة الشورى الآية ١١

[2] سورة البقرة الآية ٢٥٥

القديم، الذي هو صفة ذاته، لا خلق من خلقه.. والقرآن الكريم إن أريد منه هذا الكلام القائم بذاته تعالى فهو قديم غير مخلوق..

وإن أريد منه المنزل على نبينا مُحَمَّد ﷺ المؤلف من الأصوات والحروف المكتوب في المصاحف، المقروء بالألسنة فهو حادث.. لكن لا يوصف بالحدوث إلا في مقام التعليم فقط؛ خشية أن يسبق الفهم إلى الصفة القديمة الذي هو دال عليها.

لا يجرى في الكون شيء، ولا يكون من العباد قول، ولا خاطر، ولا حركة ولا سكون: إلا وقد قضاه الله عزّ وجل وقدره، وسبق به علمه وإرادته، خيراً كان أو شراً، طاعة أو معصية.. فمنه تعالى الخير والشر، والنفع والضر، والإسلام والكفر، والفوز والخسران، والطاعة والعصيان.. يضل من يشاء بعدله؛ ويهدي من يشاء بفضله.. وكل ميسَّر بتيسيره سبحانه إلى ما سبق في علمه.. تنزه أن يقع في ملكه مالا يريد، أو يكون لأحد عنه غني، أو يكون هناك خالق لشيء، جلَّ أو قل، إلا هو سبحانه، خالق العباد وخالق أعمالهم، ومقدِّر أرزاقهم وآجالهم.. وليسوا مع ذلك مكرهين ولا مجبورين.. فقد خلق لهم عز وجل إرادة واختياراً، وقدرة تقترن بالفعل، وإن كانت لا تؤثر فيه. فبطل مذهب المعتزلة القائلين أن العبد يخلق أفعال نفسه بقدرته، وأن المعاصي والشرور الجارية في الكون ليست بإرادة الله تعالى وفعله. كما بطل مذهب الجبرية القائلين بأن العبد لا اختيار له أصلاً، وأنه كالريشة المعلقة في الهواء تميلها الريح يميناً وشمالاً.. فالحق بين هذين المذهبين، وهو المتوسط بين الأمرين.. كما قال السلف "أمر بين أمرين: لا جبر ولا تفويض".

وقد قيل للحسن البصري ﷺ: أجبر الله عباده؟ فقال: الله تعالى أعدل من ذلك، قيل: أفوض إليهم؟. فقال: الله أعز من ذلك..

ثم قال: لو جبرهم لما عذَّبهم، ولو فوّض إليهم لما كان للأمر– يعني شأن الألوهية وعزها– معنىً.. ولكن منزلة بين المنزلتين، كبعد ما بين السماء والأرض، ولله فيه سر لا تعلمونه".

وقد بعث الله تعالى الرسل عليهم الصلاة والسلام إلى العباد لإقامة الحجة عليهم وبيان أمره تعالى ونهيه.. ووعده ووعيده، وسائر ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.. وهم بشر من جملة الناس، مولودون من ذكر وأنثى، إلا آدم عليه الصلاة والسلام، فقد خلقه الله تعالى من تراب.. وعيسى عليه السلام فإنه لا أب له.. كما نص على ذلك القرآن الكريم.. وإن كانوا بشراً ممتازين وعباداً مكرمين بالوحي والرسالة، معصومين عن سائر النقائص، والعيوب، متصفين بالأمانة والصدق والفطانة، وهي حدة العقل وقوة الذكاء. لأنهم أرسلوا لإقامة الحجج وإبطال شُبه المجادلين، وهداية الناس إلى الخير فلا بد أن يكونوا كذلك.

أولهم آدم عليه الصلاة والسلام. وهو أبو البشر، وأصل النوع الإنساني كله.. وآخرهم سيدنا ومولانا مُحَمَّد ﷺ. فهو خاتم النبيين وسيد المرسلين. وأفضل الخلق أجمعين.. بعثه الله تعالى بشيراً ونذيراً وداعياً إليه بإذنه وسراجاً منيراً.. وأنزل عليه كتابه الحكيم، وهدى به الصراط المستقيم، وأيده بالمعجزات الباهرات والآيات البينات..

ومما يجب الإيمان به. أن هذه الدنيا منقضية ولابد.. وأن الساعة آتية لا ريب فيها.. وأن الله تعالى يبعث من في القبور. فيعيد الخلق كما كانوا في الدنيا بأجسادهم وأرواحهم. ويومئذ يعرضون على الله تعالى لحسابهم، وتوضع الموازين لوزن أعمالهم. ويؤتون صحائف أعمالهم، مدوَّناً فيها كل ما عملوه خيراً كان أو شراً.

ومن ذلك الإيمان بالصراط: وهو جسر مضروب فوق متن جهنم، يجوزه العباد على حسب أعمالهم.. فمنهم ناجون، وهم مختلفون في سرعة النجاة

ومنهم من أوقعتهم أعمالهم في النار.

وكذلك يجب الإيمان. بحوض رسول الله ﷺ. الذي ترده أمته، من شرب منه لا يظمأ أبداً.. ويطرد عنه من بدَّل وغير.

ومما يجب اعتقاده أن الله تعالى خلق الجنة وأعدّها دار خلود للمؤمنين.. وأكرمهم فيها بالنعيم المقيم. وبالنظر إلى ذاته العلية، من غير تكييف ولا تشبيه.. وخلق النار، وأعدها دار خلود لمن كفر به وبأنبيائه.

ومن أدخله النار من عصاة المؤمنين أخرج منها بإيمانه، وبشفاعة النبي ﷺ أو غيره من المصطفين الأخيار.

ومما يجب اعتقاده أيضاً أنه لا يكفر أحد من المسلمين بذنب.. وأن الله عز وجل ضاعف للمؤمنين الحسنات [مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا[1]]. وصفح لهم بالتوبة عن كبائر السيئات، وجعل من لم يتب صائراً إلى مشيئته.. إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه. [إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ[2]] وأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أحياء في قبورهم.. لا تأكل الأرض أجسادهم ولا تغير منها شيئاً.. وكذلك الشهداء أحياء في قبورهم عند ربهم يرزقون، وأن أرواح أهل السعادة باقية ناعمة.. وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى أن يحيي الله الموتى، ويعيد الأرواح للأجساد، ويصير إلى كل واحد إلى مقرّه من الجنة أو النار..

وأن الأموات يسألون في قبورهم.. وأن على العباد حفظة من الملائكة يكتبون أعمالهم، مع أن شيئاً من ذلك لا يخفى على الله تعالى.. وأن ملك

---

[1] سورة الأنعام الآية: ١٦٠

[2] سورة النساء الآية: ٤٨

الموت يقبض الأرواح بإذن ربه عز وجل..

وأنه لا يصح قول ولا عمل إلا بنيَّة.. ولا قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة.. وأن خير القرون الذين رأوا رسول الله ﷺ وآمنوا به وعزَّروه ونصروه.. وهم الصحابة الكرام ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم..

وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون.. أبو بكر.. ثم عمر.. ثم عثمان.. ثم علي رضي الله تعالى عنهم جميعاً.. وينبغي أن لا يذكر أحد من الصحابة إلا بأحسن ذكر، وأن يمسك عمَّا جرى بينهم.. ويُلتمس لهم أحسن المخارج.. ويجب اتباع السلف الصالح، واعتبار ما فهموه واستنبطوه من الأحكام لأنهم القدوة، وهم فوقنا في العقل والعلم والاجتهاد.

ويجب طاعة آئمة المسلمين– وهم ولاة أمرهم– ما لم يأمروا بما خالف الدين، وإلا فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ومما يجب اعتقاده أن جميع ما أخبرنا به رسول الله ﷺ في الكتاب العزيز أو السُّنة النبوية من أحوال البعث والحشر والحساب، والجنة ونعيمها، والنار وعذابها.. وكذلك نعيم القبر وعذابه.. وسؤال الملكين فيه.. والحوض والميزان والصراط.. وغير ذلك كله محمول على ظاهره.. لا رمز فيه ولا تمثيل.. بل البعث بعث حقيقي، تعاد فيه الأرواح للأجساد حقيقة، والحوض والميزان والصراط حقائق موجودة وأمور حسّية.

والجنة دار حقيقية حسية، فيها أكل وشرب وجماع ولذات حقيقية.. والنار كذلك. فيها سلاسل وأغلال وزقُّوم، وشراب الحميم حقيقة. وإن كان ذلك فوق المعهود في الدنيا.. وكذلك ما ورد في القرآن الكريم، والسنة النبوية من ذكر الملائكة والجن محمول على ظاهره.. فالملائكة أجسام نورانية لا يأكلون

ولا يشربون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

والجن أشخاص حقيقيون مخلوقون من النار. منهم المؤمن ومنهم الكافر وهم مكلفون بشريعتنا، لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

وكذلك ما ورد في الكتاب والسنة من قصص الأنبياء السابقين عليهم الصلاة والسلام وأحوال الأمم الغابرة.. وما ورد في أثناء هذه القصص من أسماء الأشخاص والبلاد.. كل ذلك حق ثابت، محمول على ظاهره المعهود منه في اللغة والعرف لا تمثيل فيه ولا تخييل.

وكذلك ما ورد فيهما من الأحكام التكليفية كالصلوات الخمس في اليوم والليلة. وصيام شهر رمضان. والزكاة، والحج والجهاد. والحدود، وما نهى الله تعالى عنه من المحرمات: كقتل النفس، والزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، وغير ذلك من الأوامر والنواهي كله حق، محمول على ظاهره، مكلف به كل عاقل في كل زمان ومكان.. كما بينه ﷺ وتلقاه عنه أصحابه الثقات العدول، الذين تشرفوا بمشاهدته ومشافهته، وحضروا التنزيل، وعرفوا طرق العلم ووجوه التأويل، ووقفوا منه ﷺ على كيفية العمل وطريقة الأداء لجميع الشعائر والعبادات والمعاملات.. من أنكر شيئاً من ذلك أو شك فيه فهو كافر حلال الدم.. ومن قصر في أدائه من غير عذر شرعي فهو عاصٍ آثم، يجب على ولاة الأمر ردعه وزجره.

نبينا صلى الله عليه وسلم

حبيب رب العالمين، وأفضل الخلق أجمعين.. بشر لا كالبشر.. في ظاهره وباطنه.. في جسمه وعقله وروحه.. عقله أسنى العقول وأكبرها.. وفطرته أصفى الفطر وأطهرها، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور.

وقد حمل من أعباء النبوة، ومشاق الدعوة إلى الله تعالى ما لا تحمله الجبال. فاق الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام في أخلاقه ومعجزاته، ومعرفته بربه، وإطلاعه على أمور الغيب، وإصلاحه لشئون العالم.

حاز خصال الآدمية الكاملة.. وأحرز خصال النبوّة والرسالة على أكمل الوجوه وأتمها.

أعم الرسل رسالة، وأكثرهم أتباعاً، وأعظمهم جاهاً، وأولهم شفاعة يوم القيامة.

أبلغ الدعاة إلى الله تعالى.. وأكبر المصلحين.. ومنبع السعادة.. ومورد العلم والهدى.. ورحمة العالمين في الدنيا والآخرة.

وجوده رحمة.. وبعثه رحمة.. وكل ما يصدر منه سعادة ورحمة.. امتثال أمره سعادة ورحمة.. واجتناب نهيه سعادة ورحمة.. والتخلق بأخلاقه سعادة ورحمة.. والتعلق بجنابه سعادة ورحمة.. والصلاة عليه ﷺ سعادة ورحمة.. والتوسل بجاهه سعادة ورحمة.

أسعده الله تعالى بعصمته، واختاره لوحيه، وجعله علماً على دينه، وحجة على خلقه، وربط به سعادة الناس في معاشهم ومعادهم، وشغل به التاريخ كله، لا من يوم بعثته فقط. بل من مبدأ العالم:

ما مضت فترة من الرسل إلا ... بشرت قومها بك الأنبياء

تتباهى بك العصور وتسمو ... بك علياء بعدها علياء

منه انشقت الأسرار، وانفلقت الأنوار.. شحذ العقول، وحفز الهمم، ونبه الأفكار وأشعل مصابيح القلوب، وشفاها من أمراض الجهالة والضلال.

شيد أركان الشريعة للعالمين.. وأوضح أفعال الطريقة للسائرين.. ورمز في علوم الحقيقة للعارفين.

طاعته طاعة الله، وحكمه حكم الله، ومخالفة أمره موجب لغضب الله تعالى وسخطه.. إذ لا يقول ﷺ قولاً، ولا يفعل فعلاً إلا برضا الله تعالى وبإذنه.. وقد رأيت في سورة واحدة من القرآن الكريم وهي سورة (التوبة) بضعة عشر موضعاً ذكر فيها إسمه ﷺ مقروناً بإسم الله تعالى للدلالة على هذا المعنى: [بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ[1]] [وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ..]، [كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ..]، [وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ..]، [إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ..]، [فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ..]، [وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ..]، إلى غير ذلك.

وقال الإمام أحمد: "نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في ثلاثة وثلاثين موضعاً، ثم جعل يتلو [فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[2]]. ويكررها ويقول: الفتنة الشرك. لعله إذا رد بعض قوله ﷺ أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك ثم تلا قوله تعالى: [فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا[3]].

والدلائل على نبوة نبينا ومولانا مُحَمَّد ﷺ وعلى عظمته كثيرة جداً.. وكل واحد منها صالح لأن يكون دليلاً مستقلاً لو انفرد. فكيف وقد اجتمعت كلها فيه.. وهي على ضربين:

---

[1] سورة التوبة، الآيات: ١، ٧، ٥٩، ٧٤، ٩١، ١٠٥، ١٠٧

[2] سورة النور، الآية ٦٣

[3] سورة النساء الآية: ٦٥

منها الجلي الظاهر، الذي يعرفه كل ناظر ولا يمارى فيه إلا من ألغى عقله واتبع شيطانه وهواه. كالمعجزات الحسية التي وقعت له ﷺ.. من حنين الجذع.. وانشقاق القمر.. ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة.. وإخباره بالمغيبات.. وعلى رأسها القرآن الكريم.

ومنها الخفي كالإعجاز في خلقه. صدقه. وحكمته. واعتدال أمره كله. والحكم والأسرار التي يدركها الخاصة في أفعاله وتصرفاته.. وكالأنوار التي كانت تلوح على وجهه الشريف صلوات الله وسلامه عليه.

ومن أعظم دلائل نبوته ﷺ أنه قد بلغ في الحكمة النظرية كمعرفة الله تعالى وصفاته، وأسمائه، وأحكامه.. وفي الحكمة العملية وهي علم الأخلاق، وسياسة البدن، وتدبير أمر الخلق المبلغ العظيم، الذي لا يمكن للعقلاء الوصول إليه في مئات السنين.. وقد وصل إليه بغتة من غير تعلم ولا مخالطة لأحد معروف بالعلم.

كفاك بالعلم في الأميّ معجزة ... في الجاهلية والتأديب في اليتم

ولقد ضرب ﷺ بسيرته الطاهرة وأخلاقه الكريمة أروع الأمثال مما كان متحلياً به من صفات ذاته وشمائله قبل النبوّة وبعدها.

وعندي أن الإتجاه بالفكر إلى هذه الناحية منه ﷺ يكفي الإنسان لأن يضع فيه ثقته، ويأخذ الدين عنه قضية مسلمة.. إذ لا عقل، ولا علم، ولا إخلاص، ولا نصيحة، ولا صراحة، ولا بعد عن الأغراض، ولا نزاهة، ولا مراقبة لله تعالى كما كان ﷺ.

وإن قلباً يعرف ذلك عنه صلوات الله وسلامه عليه ولا يُحبه ولا يثق فيه لهو قلب جافٍ، لا يخضع للحق، ولا يذعن للحجة، ولا يقدر قيمة الفضل والكمال.

قال أبو حمزة البغدادي: من تبع أثر الدليل الصادق الناصح بلغ عن قريب إلى مقصده، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أحواله وأفعاله وأقواله.

قال تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا[1]].

أرسلناك شاهداً على صحة الدين، وتوحيد رب العالمين، يعني مقرراً لذلك ومبرهناً عليه:

١. بما جبلت عليه من الأخلاق الكريمة والشيم العالية.. كما قالت السيدة خديجة ﵂: "إنك لتصل الرحم. وتحمل الكلَّ. وتقرى الضيف، وتكسب المعدوم. وتُعين على نوائب الحق".

٢. وبسيرتك الطاهرة الشريفة طوال حياتك في السلم والحرب، والأمن والخوف.. فلم تستعمل حيلة، ولم تعد وعداً كاذباً، ولم تستعن على نصر حقك بباطل قط.. وهذا بخلاف المألوف في الفاتحين.

٣. وبما بثثته من العلوم النافعة في الدين والدنيا، التي لا حصر لها، وليس فيها إلا الحق الموافق لقضايا العقول، وسنن الكون، ونظام الحياة.

٤. وبما أجراه الله تعالى على يديك من المعجزات المستلزمة لصدقك التي دلالتها على التصديق أبلغ من كل دلالة.

وقد أعطاك الله تعالى أنواعها كلها.

٥. وبكلامه عز وجل الدال دلالة قاطعة على أنه كلام الله تعالى بفصاحته

---

[1] سورة الأحزاب الآية: ٤٥، ٤٦

الفائقة، وبلاغته الباهرة، وباحتوائه على أصناف المعارف والعلوم.

"ومبشراً" للمؤمنين والطائعين بالجنة "ونذيراً" للكافرين والعاصين بالنار والعذاب "وداعياً إلى الله" إلى توحيده ومعرفته وطاعته. لا إلى دنيا ومال، ولا إلى رياسة وملك "بإذنه" بتوفيقه وتيسيره "وسراجاً منيراً" تقتبس منك البصائر نورها، وتضيء بك العقول في مسالكها.. فأنت للبصائر والعقول كالسراج للأبصار. وفي هذا إشارة إلى أنه ﷺ جاء بما يوافق الفطرة والعقل، ويذكر بما هو مركوز فيهما. وهذا هو الواقع، فجميع ما جاء به حق ثابت، لا خلل فيه ولا تفاوت.

واعلم: أن أصل وجود النبي ﷺ.. وظهور المعجزات على يديه: كنبع الماء من بين أصابعه، وحنين الجذع.. والقرآن الكريم.. وما كان عليه من خلال الخير وصفات الكمال، من أمانة وصدق، وشجاعة وكرم، وبر وإحسان، وحلم وعلم ورحمة.. إلخ كل ذلك أمور محسوسة مشاهدة معاينة لا تحتاج إلى إقامة برهان.. ولا خلاف فيها لمؤمن وكافر، وصديق وعدو.. شاهدها من عاصره وصحبه وعاشره، ونقلت تواتراً قطعياً لمن جاء بعده.

أما كونه ﷺ نبياً ورسولاً، يتصل بالغيب ويتلقى وحي الله تعالى. فهذا هو المعلوم بطريق النظر والإستدلال.. وهو مدار الخلاف بيننا وبين المنكرين لنبوته ﷺ. فنحن نقول- والحق ما نقول-: إن هذه الشمائل الكريمة والمعجزات الخارقة للعادة، وهذه العلوم التي ظهرت عليه ﷺ، شواهد جليَّة، بل دلائل قطعية على اختصاصه بالنبوّة، لأنها ليست في طوق البشر، ولا هي في متناول مداركهم وقواهم في مستمر العادة. والمخالفون ينكرون هذا.. ولا حجة لهم إلا الجهل المطبق والضلال المبين. [وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا[1]]

---

[1] سورة المائدة الآية ٤١

القرآن الكريم

القرآن الكريم.. هو كتاب الله تعالى تنزيل الحكيم الحميد، نزل به الروح الأمين على قلب النبي ﷺ ليكون للعالمين نذيراً.

رسالة الله تعالى إلى عباده، وعهده إلى خلقه.. "فيه– كما قال رسول الله ﷺ– نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، هو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تليبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: [إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ[1]]. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم."

هو المعجزة الكبرى، والآية الخالدة، يتحدى الزمن ويصارع الأيام. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

لا يعتريه شك.. ولا يتطرق إليه تغيير ولا تبديل [إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ..[2]]

أعجز البلغاء والفصحاء، وأعي أرباب القول وعباقرة البيان.

تهز القلوب روعته. ويأسر الألباب سحر بلاغته.

سمعه العرب وفيهم الشاعر المطبوع، والخطيب المنطيق فخرّوا له سجداً وجثوا تحت قدميه مع أنهم كفرة لا يؤمنون.

---

[1] سورة الجن الآيتان: ١،٢

[2] سورة الحجر الآية: ٩

ليس شعراً مما ينظم الشعراء.. ولا هو نثر مما يقول الخطباء. أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض. [اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ[1]].

والمتأمل في إعجاز القرآن يجده– أيضاً– على ضربين:

ظاهر يعرفه كل عاقل، ويدكه كل ناظر، كقوله تعالى: [قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا[2]]، وقوله: [فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا[3]].

فإن هذا كلام لا يمكن أن يصدر إلا من الله تعالى، ولا يقوله بشر من عند نفسه أبداً. فإن العظمة التي فيه عظمة الربوبية، والسطوة التي عليه ليست إلا سطوة الألوهية. عظمة الله العزيز الذي يتكلم والملك ملكه، والبلاد بلاده، والعباد عباده. لا منازع له في ذلك ولا متصرف سواه.

وقد تحقق ذلك فعلاً، فلم يمكن لأحد أن يأتي بمثل القرآن ولا بآية منه إلى وقتنا هذا.. وإلى أن تقوم الساعة.

وكقوله تعالى: [وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ[4]]، وقد عصمه الله تعالى على كثرة ما خاض من المعارك، وتعرض له من الأهوال والمخاطر.

وقوله تعالى: [هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى

---

(١) سورة الزمر الآية: ٢٣

(٢) سورة الإسراء. الآية: ٨٨

(٣) سورة البقرة. الآية: ٢٤

(٤) سورة المائدة. الآية: ٦٧

الدِّينِ كُلِّهِ[1]].

وقد أظهر الله تعالى دينه، ونشره في الآفاق، وغلب بحججه وبراهينه حتى ملأ الدنيا، وذلت له الألوية والأعلام، وألف الناس فيه تآليف لا تحصى ولا تعد.

ولذلك كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يذكران المجاهدين بذلك لتثبيتهم وتقوية قلوبهم.

وخفي دقيق، لا يعرفه إلا أهل العلم والحكمة، كما قال عز وجل: [وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ[2]]، وقوله: [وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ[3]].

وهو ما فيه من العلوم والمعارف، والحكم والأحكام، التي يعرف الخاصة أنه لا مجال للعقل فيها، ولا يمكن لمفكر وحكيم مهما بلغ من الذكاء والحذق أن يأتي بمثلها، وكالفصاحة التي لا يعرفها، ولا يتذوقها إلا العربي الأصيل، أو من وقف على خصائص اللغة وأساليبها.

جاء عتبة بن ربيعة وهو الكافر العنيد إلى رسول الله ﷺ يصده عن الدعوة ويستميله إليه ويغريه بالمال والجاه فقال: "يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت، من خيارنا حسباً ونسباً، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم. فرّقت به جماعتهم، وسفهت أحلامهم، وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت من مضى من آبائهم. فأسمع مني: أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منا بعضها.

---

[1] سورة الفتح الآية: ٢٨

[2] سورة سبأ. الآية: ٦

[3] سورة العنكبوت. الآية: ٤٣

فقال عليه السلام: قل يا أبا الوليد: أسمع: فقال: يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا، حتى لا تقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوي.

فقال عليه الصلاة والسلام: أفرغت يا أبا الوليد.؟ قال: نعم. قال: فاسمع مني- فقرأ رسول الله ﷺ سورة فصلت: [حم. تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ. قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ. الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ. قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ[1]].

وهنا أمسك عتبة بفيه ﷺ خشية أن ينزل عليهم العذاب، وناشده بالرحم أن يكف عن ذلك.. فلما رجع إلى قومه سألوه فقال: والله لقد سمعت قولاً ما

---

[1] سورة فصلت الآيات ١- ١٣.

سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالكهانة، ولا بالسحر يا معشر قريش! خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه.. فوالله ليكوننَّ لكلامه الذي سمعت نبأ.. فإن نصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فعزه عزكم.. فقالوا: لقد سحرك مُحَمَّد.!! فقال: هذا رأيي".

وسمع الوليد بن المغيرة– وكان من عظماء قريش وأكبر المعاندين للدعوة– القرآن مرة فخشع قلبه وأخذ بلبه وقال لقومه: "والله لقد سمعت من مُحَمَّد آنفاً كلاماً، ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه".

هذا هو القرآن الكريم نعمة الله الكبرى على خلقه.. ونوره المبين الذي يشع على الأجيال جيلاً بعد جيل، يمدهم بأمداده ويفيض عليهم بنفحاته ومعارفه.

لا تنزل بأحد نازلة إلى يوم القيامة إلا وفيه دليل الهدى إليها– كما قال الإمام الشافعي رضى الله عنه.

وقال ابن القيم: دلائله قطعية لا تعترضها الشبهات، ولا تتوارد عليها الاحتمالات، ولا ينصرف القلب عنها بعد معرفتها أبداً.

فيه بيان أسمائه عز وجل وصفاته الجلالية والجمالية.

وفيه التذكير بآلائه ونعمه الظاهرة والباطنة، والتذكير بأيامه عز وجل في خلقه.. وهو بيان مجازاته تعالى للمطيعين والعصاة في الدنيا، بتقليب النعم والنقم، حتى تتمثل في صدورهم الرغبة في الطاعات، والخوف من المعاصي.

فيه آداب العبودية: من خشية الله تعالى، ومراقبته، والخوف منه، ووجوب محبته، والتوكل عليه، والتفويض له، والتسليم لأحكامه تعالى.

فيه بيان ما يتقى من وساوس الشيطان ومكايده، وبيان مداخله إلى القلوب، وما يغرّ به الإنسان من التسويف وطول الأمل.

فيه التحذير من الدنيا، والاغترار بزهرتها، والركون إلى شهواتها، وما ينبغى للعاقل من الزهد فيها، والتقلل منها، والإنابة إلى الآخرة.. دار الخلود، والاستعداد لها بالإيمان والعمل الصالح.

فيه رسم الخطة للدعوة إلى الله تعالى. وأنها تكون بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن.. لتكون أثمر وأنجع في القلوب.

افيه التنبيه على أن الناس من أصل واحد.. أبوهم آدم.. وأمهم حواء. ولا فضل لعربي على أعجمى إلا بالتقوى. [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ[1]].

فيه بيان خلق الإنسان.. وبيان أطواره من أول نشأته إلى موته، وكيفية الموت، وقبض الروح، وما يفعل بها بعد صعودها إلى السماء.. وفتح الباب للمؤمنة.. وإيصاده عن الكافرة.. ومقر الأرواح، وعذاب القبر، والسؤال فيه.

فيه أحوال البعث، من النفخات الثلاث: نفخة الفزع، والصعق، والقيام. فيه عجائب المخلوات.. وملكوت السموات والأرض.

فيه الأدب.. والحكمة.. والأخلاق.. والعبادة.. والتشريع الذي لا يستغنى عنه. ولا يسد مسده غيره.

فيه بيان الأشياء التي تصرف الناس عن اتباع الحق والهدى: من الكبر وحب الرياسة، وإلف الباطل واعتياده..

---

[1] سورة الحجرات الآية ١٣

وفيه بيان الشهوات التي تخدع النفوس، وتشغل القلوب عن الله تعالى: [زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ[1]].. [قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ[2]].

فيه أن من لم يتأدب مع الله تعالى ويحافظ على حدوده وأوامره يخسر ويندم حيث لا ينفع الندم ولا يفيد: [أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ[3]] [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ[4]].

وفيه بيان أن الله تعالى لا يهدي إلا من ينيب إليه ويجاهد في سبيله.. [اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ(٥)]. [وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا[6]].

وأنه لا يتعظ ولا يتذكر إلا من له قلب حيّ وفكر واعٍ [إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ[7]].

---

[1] سورة آل عمران. الآية: ١٤

[2] سورة التوبة. الآية: ٢٤

[3] سورة الزمر. الآية: ٥٦

[4] سورة المنافقون. الآية: ٩

[5] سورة الشورى. الآية: ١٣

[6] سورة العنكبوت. الآية: ٦٩

[7] سورة ق. الآية ٢٧

وبيان أن معرفة الحق والهدى لا تكفي للنجاة.. بل لابد من العمل والتقوى.

في القرآن الكريم هذا.. وأكثر منه.. فيه من الفوائد والأسرار والحكم والمعارف ما لا يحيط به علم أحد.. ولكن كل من يغترف منه على قدر نور بصيرته وعقله.

قال جعفر الصادق ﷺ: "والله لقد تجلى الله تعالى لعباده في كلامه ولكنهم لا يبصرون" أي ظهر بأسمائه وصفاته وتجلياته ظهوراً تدركه القلوب إذا كانت حية مبصرة.

واعلم أن القرآن أكبر معجزات نبينا ﷺ.. وقد أكرمنا الله تعالى بوجوده محفوظاً متواتراً.. تحفظه الألوف المؤلفة في كل عصر، والمصاحف التي تحويه في الدنيا تفوق الحصر.. والخير كله فيه تلاوة وفهماً وعملاً.

لا يغيض معينه ولا تتناهى أسراره.. ولذلك قال ابن مسعود ﷺ: نَوِّرُوا القرآن– أي اعرفوا أسراره وأنواره– والتمسوا غرائبه ففيه علم الأولين والآخرين.

وعنه أيضاً: ما من آية في القرآن إلا وقد عمل بها قوم أو سيعمل بها آخرون.

يعني: أنه ديوان العلوم، وكتاب الأجيال في كل زمان ومكان. لم يجتمع في كتاب قط من العلوم المختلفة مثل ما اجتمع فيه.

ولكن تأخذ الألباب منه على قدر القرائح والفهوم

وما من كلمة فيه لو تأملها العاقل إلا وهي شاهدة بأنه كلام رب

العالمين وتنزيل الحكيم العليم، لا تبلغه قوة البشر، ولا يمكن معارضته ومحاكاته.

ومن تدبير الله تعالى العظيم لهذا الكتاب: أن ألهم العرب قبل بعثته ﷺ الاشتغال بالشعر، والمباراة في الخطب، والتفنن في البلاغة حتى وجد فيهم من بلغوا مبلغ التخصص في هذا الباب، وكان إليهم المرجع فيه، لأنه عز وجل علم أنه سيجعل هذا القرآن معجزة لنبيه ﷺ فهيأ العرب لذلك، حتى يمكنهم إدراك بلاغته، ويعرفوا أنه خارج عن طوقهم وقدرتهم. وإنما وقع التصريح بتحدي العرب والقطع بأن أحداً لا يمكنه معارضته والإتيان بمثله لئلا يدعي مدعي– وإن كان مثل هذا الإدعاء بعيداً غاية البعد– أنه قد اتفق اتفاقاً عدم معارضة القرآن من العرب. ولو أنهم طولبوا بالمعارضة لما عجزوا. أو لئلا يقال: قد عجز العرب ولكن عجزهم لا يلزم منه عجز غيرهم. فهذا هو التحدي القاطع وهو باقٍ وعام إلى يوم القيامة لجميع العصور والقرون.. ومن حِكَم هذا التحدي أيضاً لفت الأنظار وحث العقول على البحث في وجوه إعجازه وتعرف طرقه.

فالقرآن الكريم منار الإسلام وحجته الباهرة، وديوانه المحيط بكل شيء قال ابن العربي: إن الشخص إذا كان مؤمناً بالقرآن قاطعاً بأنه كلام الله تعالى فالواجب عليه أن يأخذ عقيدته منه، من غير تأويل ولا عدول إلى أدلة العقول مجردة عن الشرع، فإن القرآن دليل قطعي سمعي عقلي، فقد أثبت سبحانه وتعالى فيه أنه منزه عن أن يشبهه شيء من المخلوقات، أو يشبه هو شيئاً منها بقوله تعالى: [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[1]] وبقوله تعالى: [سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ[2]] ونحوهما من الآيات..

وأثبت رؤيته تعالى للمؤمنين في الآخرة بقوله تعالى: [وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ.

---

[1] سورة الشورى الآية: ١١٠

[2] سورة الصافات الآية: ١٨٠

إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ][1]، وبمفهوم قوله تعالى في الكفار: [كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ][2]، فدل على أن المؤمنين يرونه ولا يحجبون عنه. وأثبت نفي الإحاطة به بقوله تعالى: [لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ][3]، وبقوله تعالى: [أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ][4]، وأثبت كونه تعالى قادراً بقوله تعالى: [وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ][5]، وأثبت كونه عالماً بقوله تعالى: [وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا][6].. وأثبت كونه مريداً للخير والشر بقوله تعالى: [فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ][7]، وبقوله: [فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ][8]، وأثبت كونه تعالى سميعاً لخلقه بقوله تعالى: [قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا[9]]، وأثبت كونه تعالى بصيراً بأعمال عباده بقوله تعالى: [وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ][10]، وبقوله: [أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى][11] وأثبت كونه تعالى متكلماً بقوله تعالى: [وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا][12]. وأثبت كونه حياً بقوله تعالى: [اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ][13] وأثبت رسالة الرسل بقوله تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى][14]، وأثبت رسالة مُحَمَّد ﷺ بقوله تعالى: [مُحَمَّدٌ

---

[1] سورة القيامة الآية: ٢٢، ٢٣

[2] سورة المطففين الآية: ١٥

[3] سورة الأنعام الآية: ١٠٣

[4] سورة فصلت الآية: ٥٤

[5] سورة الملك الآية: ١

[6] سورة الطلاق الآية: ١٢

[7] سورة البروج الآية: ١٦

[8] سورة إبراهيم الآية: ٤

[9] سورة المجادلة الآية: ١

[10] سورة الحديد الآية: ٤

[11] سورة العلق الآية: ١٤

[12] سورة النساء الآية: ١٦٤

[13] سورة البقرة الآية: ٢٥٥

[14] سورة يوسف الآية: ١٠٩

رَسُولُ اللَّهِ][1]، وأثبت أنه ﷺ آخر الأنبياء بعثاً بقوله تعالى: [وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ[2]]. وأثبت أن كا ما سواه خلقه بقوله تعالى: [اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ][3] وأثبت الجن بقوله تعالى: [وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ][4]، وأثبت أن الجن يدخلون الجنة بقوله تعالى: [لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ][5]، وأثبت حشر الأجساد بقوله تعالى: [إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ][6]، إلى أمثال ذلك مما هو مذكور في كتب العقائد: كوجوب الإيمان بالقضا والقدر، والميزان، والحوض، والصراط، والحساب، وتطاير الصحف، وخلق الجنة والنار، قال الله تبارك وتعالى: [مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ][7]، وأثبت المعجزة لنبينا مُحَمَّد ﷺ بقوله تعالى: [قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ][8]. فإن القرآن كله معجزته ﷺ . أهـ.

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "أوتيت القرآن ومثله معه"، وفي رواية: "أوتيت القرآن ومثليه معه.." فأنظر كم حوى ﷺ في قلبه من المعارف والعلوم.

السنة النبوية وأثرها في التشريع

للسنة النبوية أثر كبير في التشريع الإسلامي، فإنها علاوة على كونها في ذاتها أصلاً مستقلاً يرجع إليه في معرفة الأحكام الشرعية، ويستدل به على الخطابات الإلهية. قد كشفت لنا عن مضمون الكتاب العزيز، وفتحت لنا كنوز أسراره، وعبرت عن المقصود منه، تحقيقاً لقوله تعالى: [وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ

---

[1] سورة الفتح الآية: ٢٩

[2] سورة الأحزاب الآية: ٤٠

[3] سورة الأنعام الآية: ١٠٢

[4] سورة الذاريات الآية: ٥٦

[5] سورة الرحمن الآية: ٥٦

[6] سورة العاديات الآية: ٩

[7] سورة الأنعام الآية: ٣٨

[8] سورة البقرة الآية: ٢٣

لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ[1]]. فبينت لنا المراد من ظاهره وباطنه، وخاصة وعامة، ومفصلة ومجملة، ومحكمه ومنسوخه، وغير ذلك مما تضمنته آياته، واحتوت عليه ثناياه..

ولقد كان من الضروري أن ينزل القرآن الكريم مشتملاً على هذه الأنواع المذكورة لأنه دستور الأمم كلها، وكتاب الأجيال قاطبة إلى يوم القيامة فلو أنه اشتمل على كل شيء بالتفصيل، ونص على جميع الوقائع الجزئية وبيان أحكامها، لما كان من المستطاع حفظه، واستظهاره، والتعبد بتلاوته، اللهم إلا لنبي مرسل، أو ملك مقرب؛ فلا يكون حاله كما قال تعالى: [وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآَنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ[2]].

فكان من الحكمة والرحمة بالأمة أن ينزله الله تعالى هكذا في معظم آياته، أصولاً عامة، وقواعد كلية، مشتملة على التعريف بمصالح الدارين، والحث على اجتلابها، والتعريف بمفاسدهما والحض على اجتنابها: وما أقام له ترجماناً يعرب عنه ويبين محتوياته إلا ذلك النبي المعصوم المنزه عن نزغات الجنان وفلتات اللسان صلوات الله وسلامه عليه [وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى[3]].

وقد يتوهم متوهم أن في هذا الذي قررناه ما يتنافى مع قول الحق جل وعلا: [مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ][4]، [وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ][5].

---

[1] سورة النحل الآية ٤٤

[2] سورة القمر الآية ٧

[3] سورة النجم الآيات ١– ٢٥

[4] سورة الأنعام الآية ٣٨

[5] سورة النحل الآية ٨٩

والواقع أنه لا منافاة لما ذكره العلماء في هاتين الآيتين الكريمتين من أن المراد بهما، كون القرآن أصلاً لبيان كل شيء بنفسه أو ببيان النبي صلى الله عليه وسلم.

وعن عمران بن حصين ﷺ أنه قال لرجل إنك امرؤ أحمق، أتجد في كتاب الله الظهر أربعا، لا يجهر فيها بالقراءة؟ ثم عدد إليه الصلاة والزكاة، ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله مفسراً؟ إن كتاب الله أبهم هذا، وإن السنة تفسره.

وروى الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: كان الوحي– أي القرآن– ينزل على رسول الله ﷺ، ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك، ومن ثم قال الأوزاعي: الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب. وعن الإمام أحمد ﷺ: ما أجسر على هذا الكلام أن أقوله، ولكن أقول: السُّنة تفسر الكتاب ونبينه.

وذلك أن القرآن– كما سبق– فيه المجمل والمنسوخ، والعام المراد به الخصوص ومنه ما لايمكن فهمه إلا بالوقوف على أسباب نزوله.. وكل ذلك إنما يؤخذ عن سنة النبي ﷺ ودلالته..

فالحاصل كما قال الحافظ السيوطي: أن معنى احتياج القرآن إلى السنة أنها مبينة له، ومفصلة لمجملاته، لأن فيه لو جازته كنوزاً تحتاج إلى من يعرف خفايا خباياها فيبرزها، وذلك هو المنزل عليه ﷺ. وعن علي ﷺ وكرم الله وجهه أنه مرَّ على قاص يقُصُّ فقال: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ فقال: لا. فقال عليّ: هلكت وأهلكت!!

قال الإمام الشافعي ﷺ: ولا يستدل على الناسخ والمنسوخ في القرآن إلا بخبر عن رسول الله ﷺ، أو بوقت يدل على أن أحدهما بعد الآخر فيعلم أن

الآخر هو الناسخ، أو يقول من سمع الحديث، أو الإجماع..

وعن أيوب السختياني أنه قال: إذا حدثت الرجل بسنة فقال دعنا من هذا وانبئنا عن القرآن، فأعلم أنه ضالّ.

وعنه أيضاً قال: قال رجل عند مطرف بن عبدالله: لا تحدثنا إلا بما في القرآن فقال مطرف: إنّا والله ما نريد بالقرآن بديلاً، ولكنا نريد من هو أعلم بالقرآن منا– كذا في مفتاح الجنة.

قلت: وبمثل ما قاله مطرف بن عبدالله رحمه الله يرد على أولئك القاصرين المقصرين من أبناء جيلنا الحاضر الذين عوَّلوا على ظواهر الكتاب والسنة، وأعرضوا عما قاله الآئمة فيهما، واستنبطوه من أحكامهما وقد انتحلوا لأنفسهم رتبة الاجتهاد ظلماً وعدواناً. وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الجهل المطبق وما تهوى أنفسهم الخبيثة. وإذا نصحت إلى الواحد منهم بالوقوف عند حده، والرجوع لأقوال الآئمة والعمل بمذاهبهم المقررة قال لك: كما قال صاحب مطرف. لا تحدثونا إلا بما في الكتاب والسُّنة، ولا نعمل إلا بهما.

والله يعلم أنا لا نريد بالكتاب والسنة بديلاً. ولكنا نريد من هو أعلم بهما منا، وهم الآئمة المجتهدون رضي الله عهم وعنا بهم أجمعين.

وأشد بلية من هؤلاء وسخفاً أولئك الذين تهجموا على كثير من الأحاديث النبوية الصحيحة، الواردة في كتب السنة المعتبرة التي تلقتها الأمة بالقبول لأنها وردت بما لم يرد في القرآن، على حسب فهمهم وعقولهم أو لمجرد أنها خالفت بعض النظريات الحديثة عند الأوروبيين. وهذه جرأة شنيعة، بل حماقة مزرية جرَّهم إليها تقليدهم الأعمى لأولئك القوم وتقديسهم لنظرياتهم التي لم تثبت صحتها حتى عند مخترعيها أنفسهم، الذين ماتوا وهم على غير يقين منها.

ولنتحف القارئ بشيء من بيان السُّنة للكتاب على سبيل التمثيل فنقول:

قال الله تعالى: [فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ[1]].

فلولا بيان النبي ﷺ ما كنا نفهم حقيقة هذه الآية، ولا بيان المراد من عدد الصلوات في اليوم والليلة، ولا عدد الركعات وتحديد الأوقات بالنسبة للصلاة، ولا كنا نفهم القدر الواجب في الزكاة ولا الأنواع التي تجب فيها من الذهب والفضة والأنعام والحرث.

وقال تعالى: [وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا[2]].

فلولا أن النبي ﷺ بين لنا موضع القطع المراد، والقدر الذي يترتب عليه القطع المذكور ما كنا نعرف ذلك بحال..

وهذا مثال لبيان السُّنة للمجمل الوارد في القرآن..

وأما تخصيص العام فكقوله تعالى: [الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ[3]]. خص بحديث "ماعز" المشهور الدال على أن الزاني إذا كان محصناً يرجم بالحجارة حتى يموت.. وكقوله تعالى: [وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ[4]] خص بحديث أبي هريرة "أن المرأة لا تنكح على عمتها وخالتها".. وكقوله تعالى: [يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ[5]]. خص برواية أبي هريرة ﷺ أيضاً "أنه لا يرث القاتل، والعبد، ولا أهل ملتين". وبرواية أبي بكر الصديق ﷺ حينما طلبت منه السيدة فاطمة الزهراء ميراثها من النبي

---

[1] سورة الحج الآية: ٨٧

[2] سورة المائدة الآية: ٣٨

[3] سورة النور الآية: ٢

[4] سورة النساء الآية: ٣٢

[5] سورة النساء الآية: ١١

ﷺ مستندة لعموم هذه الآية الكريمة "نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة".

وأما بيان المنسوخ من القرآن بالسُّنة فمثل قوله تعالى: [كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ[1]]. نسخ حكمه بقوله عليه الصلاة والسلام "لا وصية لوارث". وليس لقائل أن يقول إن نسخ القرآن بالسُّنة لا يجوز لقوله تعالى: [قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ[2]] والنسخ تبديل.. لأنا نقول: إنه وإن كان تبديلاً إلا أنه ليس من تلقاء نفسه. وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

ويدل للجواز قوله تعالى: [وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ[3]] وليس بيان السُّنة النبوية للقرآن قاصراً على الأحكام التكليفية، فقد بيَّنت السنة القرآن في غيرها أيضاً. كما فسر النبي ﷺ قوله تعالى: [وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ[4]]. قال: دخلوا يزحفون على أوراكهم.. وكما فسر قوله تعالى: [فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ[5]] قال: قالوا حبة في شعرة.

وقد دل الإستقراء أيضاً على أن في السنة أشياء كثيرة لم ينص عليها في القرآن الكريم كتحريم أكل الحمر الأهلية، وكل ذي ناب، وكالعقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر، وما إلى ذلك مما تكفلت به كتب الفروع الفقهية..

---

[1] سورة البقرة الآية: ١٨٠

[2] سورة يونس الآية: ١٥

[3] سورة النحل الآية: ٥٩

[4] سورة البقرة الآية: ٥٨

[5] سورة البقرة الآية: ٥٩

وكما خصصت السنة في القرآن ونسخت من أحكامه، وبينت مجمله كذلك خصص بعضها بعضاً، ونسخ بعضها بالبعض.

أما التخصيص فكما في قوله ﷺ: "فيما سقت السماء العشر" وهو عام في النصاب وما دونه.. وقد خص بقوله عليه الصلاة والسلام: "لا زكاة فيما دون خمسة أوسق".

وأما النسخ فكما في قوله ﷺ في حديث مسلم قيل له الرجل يعجل عن امرأته ولم يمن ماذا يجب عليه؟ فقال: (الماء من الماء) نسخ بحديث الصحيحين (إذا جلس بين شعبها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل). زاد مسلم في روايته– "وإن لم يُنزل".

وكذلك قد ثبت نسخ السنة بالكتاب. كما نسخ التوجه إلى بيت المقدس الثابت بالسنة، بقوله تعالى: [فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ[1]] إلى غير ذلك مما هو مفصل في محله.. ولذلك قال بعض العلماء: ترك الكتاب موضعاً للسُّنة، وتركت السُّنة موضعاً للكتاب.

هذا والأكثرون– خلافاً لطائفة قليلة شاذة– على أن النبي ﷺ كما كان مبيناً بقوله الشريف كان مبيناً بفعله أيضاً. بدليل ما روي عنه عليه الصلاة والسلام من نحو قوله في الصلاة: "صلوا كما رأيتموني أصلي"، وفي الحج "خذوا عني مناسككم".

وأيضاً فإن المعلوم أن الإتيان بأفعال الصلاة والحج مثلاً لكونها مشاهدة أدل على معرفة تفصيلها من الإخبار عنها بالقول. إذ ليس الخبر كالمعاينة

ولهذا كانت مشاهدة (زيد في الدار) أدل على معرفة كونه فيها من الإخبار

---

[1] سورة البقرة الآية: ١٤٤

عنه بذلك..، وإذا كان القول بياناً مع قصوره في الدلالة عن الفعل المشاهد، فكون الفعل بياناً أولي.

واعلم أن حجية السُّنة النبوية، وكونها طريقاً لمعرفة الأحكام الشرعية من ضروريات هذا الدين، ومن القضايا المسلمة عند جميع المسلمين، ولا يشك في ذلك إلا جهول متعصب، أو ملحد مكذب، كيف لا. واعتقاد ذلك من لوازم الإيمان به ﷺ والإذعان لما جاء به من كتاب الله تعالى كما هو واضح غاية الوضوح.. قال الله تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ(١)]. أي عن الرسول، وقال تعالى: [قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ(٢)]. وقال تعالى: [فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ(٣)]. الآية وقال تعالى: [فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٤)].

وفي الحديث عن أبي هريرة ﷺ أنه قال إن رسول الله ﷺ قال: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله".

وعن العرباض بن سارية ﷺ قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، قال فيها: "فعليكم بسنتي وسُنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ".

وروى أبو داود والترمذي وابن ماجة عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: "ألا، لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٢٠

(٢) سورة آل عمران الآية: ٣١

(٣) سورة النساء الآية: ٦٥

(٤) سورة النور الآية: ٦٣

نهيت عنه، فيقول: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه".

وفي حديث رواه أبو الشيخ وأبو نعيم والديلمي: "فمن استمسك بحديثي وفهمه وحفظه جاء مع القرآن ومن تهاون بالقرآن وحديثي فقد خسر الدنيا والآخرة أمرت أمتي أن يأخذوا بقولي ويطيعوا أمري ويتبعوا سنتي فمن رضي بقولي فقد رضي بالقرآن". قال الله تعالى: [وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا[1]].

وعن رجل من آل خالد بن أسيد– بفتح الألف وكسر السين أو بضم الألف وفتح السين– أنه سأل عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فقال:

يا أبا عبدالرحمن. إنا نجد صلاة الخوف وصلاة الحضر في القرآن ولا نجد صلاة السفر. فقال ابن عمر رضي الله عنهما: يا ابن أخي إن الله بعث إلينا مُحَمَّداً عليه الصلاة والسلام ولا نعلم شيئاً وإنما نفعل كما رأيناه يفعل.

وروي أن امرأة من أسد أتت عبدالله بن مسعود فقالت له: بلغني أنك لعنت كيت وكيت والواشمة والمستوشمة وإني قرأت ما بين اللوحين فلم أجد الذي تقول. فقال لها عبدالله– أما قرأت: [وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ[2]]. قالت: بلى. قال فهو ذاك".

وعن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى أنه قال: سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر– يعني الخلفاء الراشدين– بعده سننا الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستعمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، والنظر في رأي من خالفها. من اقتدى بها مهتدي، ومن استنصر بها

---

[1] سورة الحشر الآية: ٧

[2] سورة الحشر الآية: ٧

منصور، ومن خالفها واتبع بها غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً..

ورؤى عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يدير ناقته أي يطيفها في مكان. فسئل عن ذلك فقال: لا أدري إلا أني رأيت رسول الله ﷺ فعله ففعلته

فقد بان لك اتفاق كلمة المسلمين على اعتبار السنة النبوية، وأنها من حجج الدين القاطعة، وأدلته الساطعة. بل لم يثبت معظم الأحكام الشرعية إلا بها..

وأما الاقتصار على القرآن وحده فإنما هو رأي قوم لا خلاق لهم، خارجين على السّنة، قد عولوا على أن الكتاب فيه تبيان كل شيء، فأطرحوا أحكام السُّنة، فأداهم ذلك إلى الانخلاع من الجماعة، وتأويل القرآن على غير ما أنزل الله، كما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: "أكثر ما أتخوف على أمتي من بعدي رجل يتأول القرآن، يضعه على غير مواضعه"، أخرجه الطبراني في الأوسط عن عمر ابن الخطاب ﷺ.. وأخرج البيهقي عن جندب ابن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: "من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ" قال أبو العلاء:

وكم من فقيه خابط في ضلالة وحجته فيها الكتاب المنزل

وأما حديث– "ما آتاكم عني فأعرضوه على كتاب الله فإن وافق كتاب الله فأنا قلته، وإن خالف كتاب الله فلم أقله أنا، وكيف أخالف كتاب الله وبه هداني الله"– فقد قال: عبدالرحمن بن مهدي– كما في الموافقات– إنه وضعه الزنادقة والخوارج، وهذه الألفاظ لا تصح عند أهل العلم بصحيح النقل وسقيمه. وقد عارض هذا الحديث قوم فقالوا: نحن نعرضه على كتاب الله قبل كل شيء، وقد عرضناه على كتاب الله فوجدناه يخالفه. لأنا لم نجد في كتاب الله أنه لا يقبل من حديث رسول الله ﷺ إلا ما وافق كتاب الله. بل وجدنا كتاب

الله يطلق التأسِّي به، والأمر بطاعته، والتحذير عن مخالفته جملة على كل حال، وعكس بعضهم فقال: قد عرضاه على كتاب الله فوجدناه لا يخالفه لأن الله تعالى يقول: [وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ[1]]. وعلى كل حال فهذا الحديث مختلق مصنوع.

[1] سورة الحشر الآية: ٧